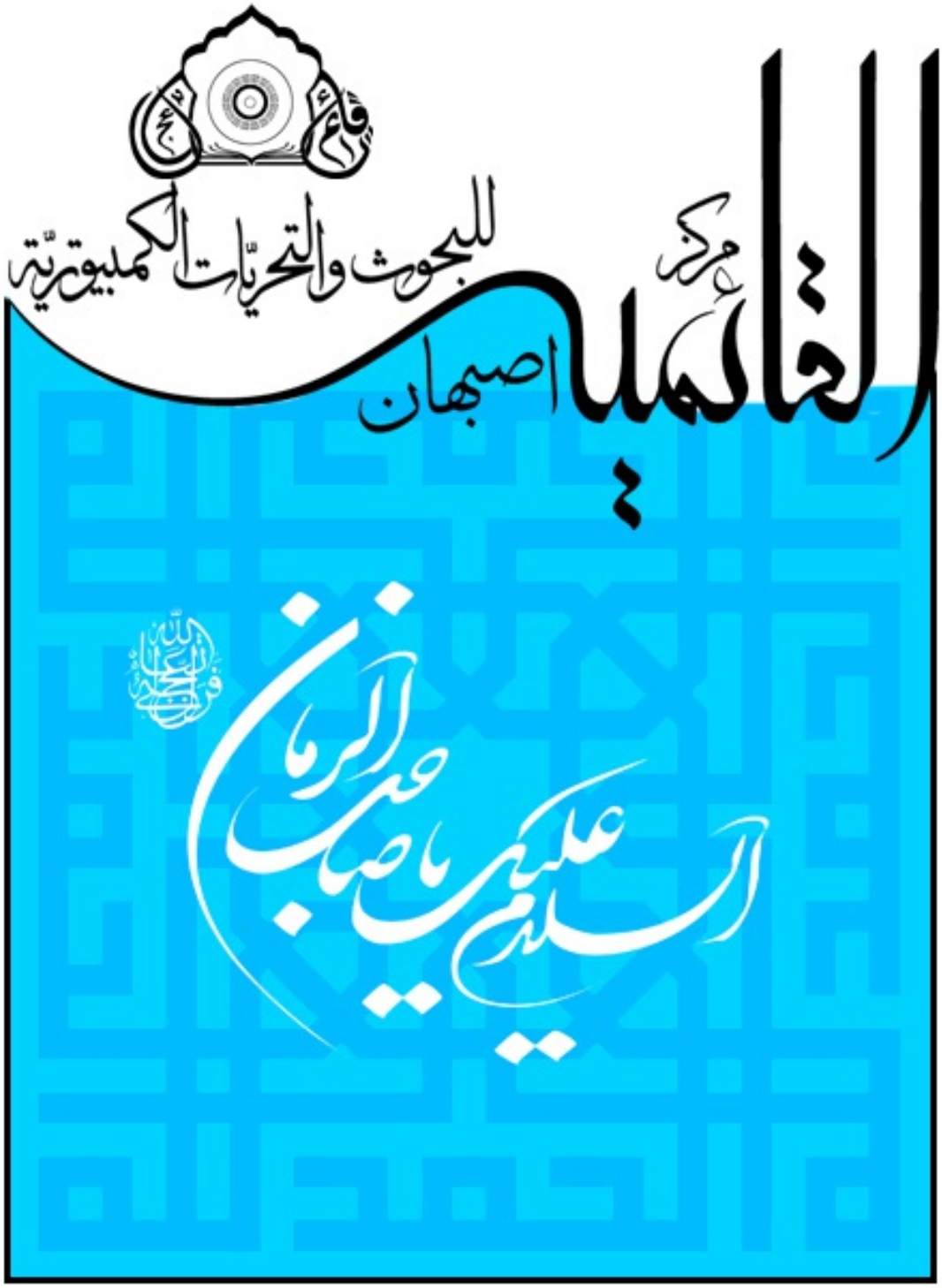

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

رحلة مدام ديولافوا

من المحمرة إلى البصرة وبغداد

١٢٩٩هـ - ١٨٨١م

ترجمها عن الفارسية

علي البصري

مراجعة وتقديم

د. مصطفى جواد

الدار العربية للموسوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة الى البصرة و بغداد

كاتب:

تعريب على بصرى

نشرت فى الطباعة:

الدار العربية للموسوعات

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
رحلة مدام ديولافوا من المحمرة الى البصرة و بغداد ----- ۷
اشارة ----- ۷
تقديم ----- ۷
رحلة مدام ديولافوا ----- ۸
السنة الأولى من الرحلة ----- ۸
فى شط كارون ----- ۸
۱- سبتمبر ۱۸۸۱ ----- ۸
۲- سبتمبر ----- ۹
البصرة بندقية الشرق ----- ۱۰
۳- سبتمبر ----- ۱۰
۴- سبتمبر ۱۸۸۱ ----- ۱۲
الصابئة، الذين يقبرون الأحياء!! ----- ۱۳
۷- سبتمبر ----- ۱۳
۸- ديسمبر ----- ۱۶
۹- ديسمبر ۱۸۸۱ ----- ۱۹
۱۰- ديسمبر: ----- ۱۹
۱۱- ديسمبر: ----- ۲۰
۱۲- ديسمبر: ----- ۲۱
۱۳- ديسمبر: ----- ۲۳
بغداد أجمل من اسلامبول و دجلة أروع من البسفور ----- ۲۵
۱۴- ديسمبر ۱۸۸۱: ----- ۲۵
۱۵- ديسمبر: ----- ۳۰

۱۶- دیسمبر: ----- ۳۳
*** ۱۷- دیسمبر: ----- ۳۵
۱۸- دیسمبر: ----- ۳۸
۱۹- دیسمبر ۱۸۸۱: ----- ۴۸
حریق بغداد .. الذی قطع الحرکة التجاریة ثلاثة أیام .. ----- ۵۱
۲۰ دیسمبر ۱۸۸۱: ----- ۵۱
۲۱ دیسمبر ۱۸۸۱: ----- ۵۴
۲۲ دیسمبر ۱۸۸۱: ----- ۵۸
۲۳ دیسمبر: ----- ۵۸
۲۴ دیسمبر: ----- ۶۱
۲۵ دیسمبر ۱۸۸۱: ----- ۶۳
۲۶ دیسمبر ۱۸۸۱: ----- ۶۵
۲۷ دیسمبر: ----- ۶۶
۲۸ دیسمبر ۱۸۸۱: ----- ۶۹
۲۹ دیسمبر: ----- ۶۹
السنة الثانیة من الرحلة ----- ۷۰
فهرس المحتویات ----- ۷۹
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۷۹

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة الى البصرة و بغداد

اشارة

نام كتاب: رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد / تعريب على بصرى

عنوان و نام پديدآور : رحلة مدام ديولافوا من المحمرة الى البصرة و بغداد سنة ۱۸۸۱م - ۱۲۹۹ / ترجمها عن الفارسية على البصرى؛ مراجعة و تقديم مصطفى جواد.

مشخصات نشر : بيروت: دارالعربيه للموسوعات، ۱۴۲۷ق= ۲۰۰۷م= ۱۳۸۶.

مشخصات ظاهرى : ۱۷۳ ص.: مصور، عكس.

وضعيت فهرست نويسى : برون‌سپارى.

يادداشت : عربى.

موضوع : ديولافوا، ژن، ۱۸۵۱ - ۱۹۱۶م.-- سفرها-- عراق

موضوع : عراق -- سير و سياحت -- قرن ۱۹م.

شناسه افزوده : بصرى، على، مترجم

شناسه افزوده : جواد، مصطفى

رده بندى كنگره : DS۷۰/۶ر۳ ۱۳۸۶

رده بندى ديويى : ۹۱۵/۶۷۰۴۳

شماره كتابشناسى ملى : ۱۱۴۴۷۹۶

تاريخ وفات مؤلف: ۱۹۱۶ م

موضوع: سفرنامه

تعداد جلد: ۱

تقديم

هذه رحلة إلى العراق ليست كالرحالات الأخرى ممّا تعوّدنا قراءته منها، إنها رحلة أديبة مؤرخة فرنسية أو مولعة بالتاريخ القديم، فى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد، تمثّل لك ضروبا من الملاحظات فى سيرة العراقيين الاجتماعية و غيرهم من الشعوب للمقابلة و المقايسة، و تكشف لك عن ثقافة تاريخية قلّما تراها اليوم عند امرأة غربية مثقفة فضلا عن امرأة شرقية، كما تذكر لك الرأى السياسى لهذه السائحة التى لم تتعود غير التصريح فى كتابتها.

د. مصطفى جواد

وردت العراق السيدة «ديولافوا» المركّب اسم عائلتها من اللّه و الإيمان سنة «۱۸۸۱ م- ۱۲۹۹ ه» فى ولاية تقى الدين باشا الثانية على العراق، و أساءت الثناء على الأتراك من ولاة و أتباع، وجدّبت إدارتهم، و استقبحت سيرهم، و يفهم من أقوالها أنها كانت تكرههم كأكثر الأمم الأوروبية يومئذ و هى بغضاء موروثة، كما يفهم من خلالها أنها كانت تحب الفرس و هم أعداء الأتراك إذ ذاك.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۸

و قد سجلت فى رحلتها فوائد طريفة فى عادات العراقيين و ألبستهم، و أحوالهم الاجتماعية الأخرى تسجيلا مفصلا يجعل رحلتها إلى القصة أقرب منها إلى الرحلة، فلا ينفك القارئ فيها مقبلا على قراءتها حتى يتمّها مشغوفا بها، مفتونا بما يتخلّلها من ملحوظات بارعة،

و نكت فائقة، و انتقادات مرّة، و فضول غريب يصوّر لنا طبيعة نسوية خاصة لا أثر لها عند السياح، و لا عند كثير من النساء، و يمثّل طرازا من التفكير ينبغى لنا أن نطلع عليه، كما يعرب لنا عن حقيقة إخلاصها لزوجها، و مكابدتها المشقات من أجله، و أسلوب هذه السيدة السائحة أسلوب أدبى بارع ممتع، تعمدت فيه الإطالة خوفا من الملالة، التى تنشأ فى العادة من الأسلوب الرياضى المألوف فى أكثر الرحل الجافة، فالرحلة قطعة أدبية جميلة.

هذا و أرجو أن يستفيد قراء العربية المولعون بالرحل من هذه الرحلة فوائد جليلة فى الاجتماع و التاريخ و الآثار و الذوق الأدبى.

د. مصطفى جواد

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۹

رحلة مدام ديولافوا

عاش فى فرنسا بين سنتى ۱۸۴۳- ۱۹۲۰ م مهندس معمارى معروف و عالم أثرى كبير، يدعى «مارسل ديولافوا» كانت له بحوث و تحقيقات قيّمة فى فن العمارة و الريازة فى الحضارات الشرقية المختلفة. و من المسائل التى تصدّى لها و الأسئلة التى أثارها: هو أكان للحضارة الساسانية تأثير فى الفن الإسلامى أم لا؟

و لقد كلفت «مارسل ديولافوا» الإجابة عن هذا السؤال تكليفا كثيرا، إذ لم يشف غليله كل ما وقع فى يديه من كتب تعنى بمثل هذه الموضوعات فى أوروبا كلها. و لم ير باحثنا المحقّق فى الأخير بدّا من شدّ رحاله إلى الشرق نفسه، ليستقى منه معلوماته و يلقى طلبته فى الإجابة عن السؤال الذى عنّ له.

يمّم وجهه شطر الشرق- أول مرّة- عام ۱۸۸۱ م على حسابه الخاص، و أمضى ما يقرب من سنة فى تركيا و القفقاز و إيران و العراق، يدقّق النظر و يطلع على الأبنية التاريخية العتيقة فيها حتى فتح اللّه عليه الجواب و اطمأنّ له!

و فى هذه السفرة- الأولى- التى قام بها مارسل كانت زوجه معه و هى معروفة بأسلوبها الرقيق و بموهبتها الفنية فى الرسم و لم تدع الفرصة تفوتها فأخذت على نفسها تسجيل يومياتها و خواطرها منذ إقلاعها من مرسيليا حتى عودتها ثانية إلى فرنسا فى كتاب سمته «رحلة ديولافوا إلى إيران و شوش و كلدة» و لقد كان لصدور هذا السفر الجليل فى باريس صداه البالغ و أثره البعيد فى يومه- لا لما تضمن من طرائف مستملحة و أخبار غريبة عن تلك المناطق التاريخية فحسب، بل لما احتوى عليه مما توصل إليه زوجها من

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۰

حقائق و استكشافات و إن كان قد خانه التوفيق فى بعضها فبالغ فى أهمية الفن الساسانى و أثره فى فن العمارة الإسلامية.

نرانا مضطرين إلى ترجمة القسم الخاص بالعراق فقط آملين أن يجد عشّاق كتب الرحلات و الأسفار لذتهم و متعتهم فيه كما نرجو أن نوفق فى تقديم الصورة التى رسمتها المؤلفة للعراق يومئذ و تسليط الضوء على حوادث و شؤون العراق فى تلك البرهة المظلمة ... و المغفلة من التاريخ.

الناشر

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۱

السنة الأولى من الرحلة

فى شط كارون

۱- سبتمبر ۱۸۸۱

ذهبنا مع حراسنا المدججين بالسلاح لزيارة مقبرة كانت تتراءى لنا من بعيد و نحن نمخر شط كارون.

و لقد وجدنا هذه المقبرة مهجورة و متروكة تماما لم يلفت نظرنا منها شيء!

و عند عودتنا كنت مبلبلة الخواطر ضجرة بحيث لم تكن عندى الرغبة فى تسويد دفتر يومياتى كالمعتاد و رأيتنى أترامى فى حجرة الزورق الذى كان يقلّنا. أمّا زوجى مارسل فلقد كان يعمل بجد و بكثير من الصبر شراعا لزورقنا ...

مقبرة الولى السيد عبود فى ساحل نهروان

و لكن المؤسف بعد كل تلك الجهود أن الريح بدأت تسكن و تهدأ رويدا رويدا كما أن طعامنا أوشك أن ينفد!

۲- سبتمبر

مضى يومان كاملان و ما زلنا نمخر عباب نهر كارون فى صعود و هبوط، كالأشخاص المصابين بالمالنخوليا. ففى أثناء المد انحرفنا عن الطريق الذى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۲

كنّا نسير فيه- فى حالة الجزر- و هددنا الخطر و استولى علينا الخوف أكثر من قبل. و لكن اللّه كان فى عوننا، و لم يذهب دعاء الدرويش الشيخ لنا عبثا إذ سرعان ما لاحت لنا عن كثب سفينة شراعية تحمل حنطة، فبادرنا بالتلويح لها و الإشارة إلى ما نحن فيه من مأزق. فدنت منّا ورمت إلينا بحبل محاولة إنقاذنا و لكن الطالع السيّئ أبى إلّا أن يحبط هذه المحاولة و يسقط الحبل دوننا و أن تحمل الريح السفينة الشراعية بعيدا عنّا بسرعة عقلت ألسنتنا و بعثت فى نفوسنا اليأس و الخوف.

بيد أن مارسل أمر أن تحرّك ماكنة الزورق المطفأة و أن يغطى مخزن البخار بغطاء ثخين فورا. و على أثر هذا تزايدت قوة النار و دفعت الزورق بسرعة إلى أمام فى أثر السفينة الشراعية. و من حسن الحظ تباطأت السفينة بسيرها بسبب الرياح المعاكسة التى هبّت فى تلك اللحظة و لانعطاف مجرى النهر فاستطعنا أن نلحق بها و أن نربط زورقنا ربطا محكما بمؤخرتها. و أخيرا و قبيل بزوغ الشمس وصلنا إلى المحمرة . و هنا قيل لنا إنه ينبغى لنا ترك زورقنا فى هذا الساحل لأنه من الصعوبة بمكان أن يقدر على قطع الشط و يصل بسلام إلى الفيلية. أخذنا بهذا الرأى من غير تردد لما كنا قد لقيناه من المتاعب فى عبور نهر كارون و مخافة أن تعاد المأساة مرّة أخرى. فتركنا زورقنا و ذهبنا لزيارة البصرة و بغداد أوّلا على أن نعود لزيارة خوزستان فى وقت آخر.

الوصول إلى البصرة عمل سهل فالقوارب تستطيع أن تقطع المسافة إليها من المحمّرة فى ثمانى ساعات و الطريق غير محفوف بمخاطر و لا بمشاق.

و لكن الذى يشتد و يشق احتماله على المسافر من هذا الطريق هو وجوب بقائه مع كافة أمتعته فى «الكرنتينة» فى الساحل العثمانى- و تقصد المؤلفة بالبداهة ساحل البصرة العراقى- زهاء عشرة أيام حال وصوله إليه بحجة منع انتقال وباء الطاعون إلى البلاد!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۳

مدخل عمارة شيخ القبيلة (فى المحمرة)

و «الكرنتينة» هذه- وقاك اللّه شرها-! عدّة أكواخ من الحصر أقيمت فوق أرض رطبة يلاقى نزلاؤه الأمرين فيها لا من حيث رطوبتها فحسب، بل لما يقدم لهم من صنوف الطعام الردىء و الماء العكر ... و كثيرا ما يقضى المسافرون نحبهم فيها من جرّاء ذلك إن لم يخترمهم الطاعون نفسه بعدواه!

و من الغريب أن تكون هذه الإجراءات القاسية لا مبرّر لها البتة فقد مضت سنوات عديد. و لم تظهر إصابة فى الطاعون فى إيران.

و يعتقد أهالى لبصرة أن المحجر هذا لم ينشأ إلّا لإيجاد مصدر يدرّ المال الوفير على الموظفين الترك فى هذه المنطقة و أنه لم يكن- على أى حال- من باب رعاية السلطان العثمانى لرعاياه أو رأفته بهم. إذ إنهم بوقاحة و بغير خجل يسطون على جيوب المسافرين

فيتركونها صفرا و يتركونهم خالى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۴

رؤساء قبائل العرب فى دار الشيخ مزعل

الوفاض، إما بصورة مباشرة أو باتباع طرق شيطانية يتحايلون بها. منها أنهم يشترون الأطعمة الفاسدة الزهيدة و يعرضونها على المسافرين المحجورين بأسعار باهظة فلا- يجد هؤلاء المساكين بدّا من شرائها و أكلها لأنه محظور عرض أطعمة سواها. ثم إن الموظفين الصغار يعرضون على المحجورين إطلاق سراحهم مقابل مبالغ معيّنة باسم الرشوة و الحلوان «البقشيش» و ما إن يخرجون من «الكرنتينة» المخيفة حتى يقبض عليهم ثانية رجال آخرون و لا يطلقون و لا يسرحون إلّا بعد دفع مبالغ جديدة تكون من حصة الموظفين الكبار منهم.

و إذا رجعنا إلى الترك نراهم يقولون إن إيران موطن الأمراض المعدية لذا كانت إقامة الكرنتينة هنا أمرا ضروريا لا مندوحة منه على علّاته، حرصا على سلامة الأهلين و للمحافظة على صحتهم!!!

و لكن الواقع خلاف هذا، إذ إن إيران لم تكن موطن هذه الأمراض الوبائية بل إن مصدرها الشيخ مزعل شيخ المحمرة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۵

أهوار و مستنقعات كربلاء و النجف التى يذهب الإيرانيون إليها بقصد زيارة العتبات المقدسة و يعودون إلى موطنهم و هم يحملون عدوى تلك الأمراض إن لم يموتوا هناك!

على أى حال إن خبر حجرنا فى هذه «الكرنتينة» النتنة الرطبة لمدة عشرة أيام- كما نقل إلينا فى الزورق قد صعقنا و أورثنا شيئا كثيرا من الضيق و الهم .. لذلك صمّمنا على أن نفرّ من قبضة السلطات التركية عند نزولنا الساحل مهما كلفنا الأمر، و رأينا أن يكون ذلك بالزوارق التجارية.

الشيخ خزعل شقيق شيخ المحمرة فى شبابه

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۷

البصرة بندقية الشرق

۳- سبتمبر

إن كان قد أتعبنا و أرهقنا الاختفاء تحت البضائع المكدّسة فى الزورق التجارى، فلكم سررنا الآن بأننا استطعنا أن نهرب من قبضة المحجر المخيف!

ها نحن أولا نكاد نبلغ المرفأ و ننظر إلى أنفسنا التى أخفيناها بين أكوام أطباق التمر بكثير من الدهشة و الإشفاق. ففى يسارنا أقفاص جميلة صنعت من ألياف النخل تستعمل لخزن الأسماك التى تصاد و التى تفيض عن البيع فتوضع هناك لعرضها فى السوق فى الوقت المناسب!

الشيخ خزعل أمير المحمّرة

و تبدو أمامنا على سواحل الشط التى تبعد قليلا مناظر فاتنة جدّا. فهذه هى النخل السامقة و تلك أرض الحقول الزاهية تخترقها مجارى المياه الرقراقة و فيها قطعان الجاموس التى لا يظهر منها إلّا رؤوسها و هى تمرح و تسرح بمطلق حريتها!

بعد مضى أربع ساعات من تركنا المحمرة بلغنا الجانب الثانى من الشط و ها هو زورقنا يقف أمام غابة صغيرة من أشجار الموز المتكاثفة. و على مسافة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۸

نهر العشار و هو القنال الذى يحيط بالبصرة

منّا ترسو عدّة سفن بصواريها الطويلة التى تشاهد من مسافات بعيدة.

و ممّا لفت نظرنا فى هذا الساحل النائى قلّة الحركة فيه إذ لم يمر بنا إلّا قاربان صغيران للنزهة. و لقد سأل من كان فيهما ملاحينا عن الوجهة التى نقصد إليها و عمّا نحمل. فأجابهم هؤلاء بأنهم متجهون إلى البصرة لبيع ما يحملونه من التمر. و على أثر هذا ابتعد القاربان عنا دون أن يحس أحد فيهما بوجودنا. إذ كنا قد بالغنا فى إخفاء أنفسنا حتى لم نجرؤ أن نحرّك أيدينا أو سوقنا لشدّة خوفنا من «الكرنتينة» اللعين!!

و ما كاد ينتصف الليل حتى بدأ زورقنا بالحركة ثانية، و أخيرا و بكثير من الحيطة و الحذر دخل نهر العشار و هنا تنفسنا الصعداء مسرورين بخلاصنا من المصيدة!!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۹

و لكن سرورنا لم يدم طويلا إذ سرعان ما وقعت حادثة أعادت الهلع و الخوف إلى نفوسنا. ذلك أن ملاحى زورقنا سمعناهم يقولون من دون سابق إنذار! إنهم أن هرّبونا من شر «الكرنتينة» فإن ضميرهم لا يطاوعهم أن يهرّبونا من إدارة الكمرك أيضا! و كان عبثا و بغير جدوى أن صرخنا محتجين منكرين ما يريدون الإقدام عليه ... و فى هذه الأثناء قفز أحد الملاحين إلى الساحل و هرول إلى إدارة الكمرك و عاد بعد هنيهة و معه عشرة من موظفيها الغلاظ!

دخل هؤلاء الزورق و أخذوا يفتحون صناديق بضائعنا الواحد بعد الآخر و يفتشونها بتدقيق و عناية بحجة أنهم يبحثون عن أسلحة حربية مهربة!

حامل نرگيلة الشيخ خزعل

و الواقع أنى لم أكن أدرى مع أى نمط من الناس كنت؟ لكى أضبط أعصابى و أمنع نفسى من أن تخرج عن طورها لتلك التصرفات الشائنة التى قابلونا بها ... فرأيتنى أركب رأسى و يأخذ التأثير و الانفعال مأخذا كبيرا منى و تتناثر من فمى كلمات قارصة و هو الأمر الذى أثار رئيس هؤلاء القوم فأمر أن يعيدونا ثانية إلى «الكرنتينة» فورا ..

و ما كدت أسمع كلمة «الكرنتينة» حتى ثبت إلى رشدى و ضبطت أعصابى فغيّرت أسلوب حديثى و أخذنا- زوجى و أنا- نساعدهم فى حل أربطة ما بقى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۲۰

تركان خاتون زوجة الشيخ خزعل مع نمرها

من صناديق أمتعتنا و وضعنا كل ذلك تحت تصرفهم و وقفنا حيالهم مكتوفى الأيدى، ننتظر بفارغ الصبر أوامرهم المطاعة!!

و لقد أثمر موقفنا الجديد منهم هذا و ما أعطيناهم من حلوان «بقشيش» إذ غيروا هم أيضا معاملتهم لنا و أخذوا يرفعون إلى أعينهم عدسات و أدوات المسح الخاصة بزوجى و هم يردّدون بقولهم: عجبا عجبا ليس بين هذه الأشياء و بين البنادق الأمريكية أى شبه؟! لشد ما نحن أغبياء!!

و هنا حمل أحدهم قنينة خاصة بغسل أفلام التصوير و طلب أن أهبها له ظنّا منه بأنها غالية الثمن و لكى نتخلّص من شر هؤلاء القوم الغلاظ بسرعة أبديت كرما على خلاف عادتى و وهبتها له على الفور بلطف وود!! و رفع شخص آخر منهم إلى عينيه نوعا من صابون غسل الأيدى ثم قرّبه من أنفه يتشمّمه بدهش و جنون و أخيرا ذاقه بلسانه و قال: انى لم أر حتى الآن مثل هذه الحلويات اللذيذة فما ألذّها. و ثالث- و كان يبدو أنه أذكى الآخرين- أخذ

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۲۱

شط العشار من الداخل

يجرّب فى لبس زوج من أحذيتى النسائية و لمّا لم يوفق لصغرها تركها جانبا و أخذ يفتش عن شىء مناسب آخر ... و الرابع رأيته يتقدّم منى و يسألنى أن أهديه ما كان معنا من أقلام التلوين و دهان التصوير!

و على أى حال و كيفما كان فقد أرضينا موظفى الكمرك الأتراك و أجبنا طلباتهم كلها و تابعنا سيرنا مبتعدين عنهم حتى كان أن دخلنا نهر البصرة غير مصدقين و لا مكذبين!!

ها نحن أولا نخترق شط العرب فرحين مسرورين دون أن يعكّر صفونا شىء .. فليس ثمة «كرنتينة». و لا موظف من موظفى الكمرك المخيفين! ننظر إلى ضوء القمر الفضى بروعة و افتتان كأننا فى البندقية .. و لكن لا. ليست هذه بندقية ايطاليا بل هى بندقية الأقاليم الاستوائية. فالسماء صافية رائقة لا تجد فيها قطعة صغيرة من الغيوم و البيوت مختفية تحت ظلال غابات النخيل الكثيفة و أشجار الليمون المثقلة بأثمارها ذات اللون الأحمر الجميل و أشجار الموز

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۲۲

مرشد تكية تهران فى الأحواز

بأوراقها العريضة التى تزيد هذا المشهد روعة و إبداعا.

و الدور الواقعة على الضفاف يخيّل للمرء تارة أنها تسبح فى مياه النهر و تارة أخرى كأنها منتصبة على جانب سد ضيّق بإباء و إغراء!

و أمام صف هذه الدور المترامية تجد الزوارق الجميلة و قد ربطت بالساحل بشكل رائق أخاذ.

و الخلاصة أنه لا يوجد شىء هنا إلّا و هو جميل فاتن من بساط أخضر زاه و من أشجار الفاكهة و مجارى المياه الهادئة و سماء شفافة مرصعة بالنجوم المتلألئة!

و أخيرا توقف زورقنا و هبطنا منه إلى ضفة النهر، و كانت عليها كميات كبيرة من الحنطة و خلال مرورنا بها شاهدنا حارسين مدججين بالسلاح يحملان بأيديهما فانوسين خافتين و بعد لأى أوصلنا الدليل الذى استأجرناه، إلى دار القنصلية و كان أن طرقنا الباب و دخلنا إلى حجرة صغيرة أحكمنا رتاجها خلفنا، لكى نستطيع أن نغيّر ملابسنا التى كانت مبتلّة بفعل رطوبة الجوّ لدرجة يظن معها بأننا قد خضنا بها مياه النهر!!

۴- سبتمبر ۱۸۸۱

الواقع أن البصرة مدينة غريبة، إنها تريك مشاهد مختلفة فى اليوم الواحد، ففى حالة المد عند ما ترتفع المياه و تغطى الساحل يخيّل إلى المرء أنه

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۲۳

سيف الحبوب فى البصرة

فى الجنة الموعودة! و عند ما تهبط المياه و ترجع إلى حالتها الأولى فيتصوّر أنه قد ترك الجنة و وقع فى غدران نتنة!!

عصر هذا اليوم خرجت للنزهة .. و إذا أنا بمنظر الليلة الماضية الجميل قد تغيّر تماما. كان النهر قد صار منطقة أو حال عفنة تزكم ريحها الأنوف، و القوارب و الزوارق تبدو من بعيد و كأنها قطع من الأخشاب المتناثرة و قد غاصت فى الوحل و الطين. أمّا الهواء فقد كان عفنا فاسدا يمنع الإنسان من أن يتمتّع بمناظر النخل و أشجار الليمون الأخاذة!

و فساد الهواء هذا الذى يتسبّب عن تتابع حالتى المد و الجزر و ارتفاع درجة الحرارة و زيادة نسبة الرطوبة كل ذلك يعمل على انتشار أمراض خطيرة فى هذه المدينة يذهب ضحاياها عدد عظيم من أهلها. و هناك سبب آخر لانتشار هذه الأوبئة و هو عدم اهتمام السلطات التركية بصحة السكان و العناية بهم ...

فالسدود التى أنشئت منذ ستين سنة أمام هذه المدينة قد تهدمت اليوم الواحد

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۲۴

امرأة أرمنية من البصرة

بعد الآخر و لم يجشم أحد نفسه ترميم هذه السدود المهدمة التى اخترقتها المياه و غمرت أراضى واسعة كوّنت منها أهوارا و مستنقعات تتولّد عنها الأمراض الخطيرة. و إذا سألت أحد الموظفين الترك عن علّة سكوتهم عن هذا الأمر أجابك بقوله: ليس هذا بمهم و اللّه كريم!!!

لا يستطيع علماء الآثار أن يفيدوا أى شىء فى هذه المدينة، لأنها حديثة البناء و لكن على العكس فالرسامون يجدون بغيتهم فيها لاقتباس «موديلات» جميلة للملابس؟!

فى هذه المدينة الموبوءة طبقات مختلفة متفاوتة كما فيها أنماط شتى من الأهلين كل له خصائصه المميّزة من حيث طرز اللباس و المعتقدات!!

فالنساء التركيات يلففن أنفسهن- بدل العباءة- بقطعة رقيقة من القماش تسمى «ايزار» و هى منسوجة من الحرير الأزرق أو الوردى أو الأبيض المصفر موشاة بأسلاك رقيقة من الفضة أو الذهب. و يلبسن تحت «الإيزار» عادة ثوبا قصيرا قد وشى بالفضة و الذهب أيضا. و فوق هذه الأثواب القصيرة يرتدين فى الغالب سترة دائرية الشكل (!) و يحتز من بحزام عريض صنع من الفضة محلّى بالجواهر النفيسة. و فى مقدمته قطعة كبيرة من الفضة. أمّا فى أرجلهن فتجد (جزمات) صغيرة مثل التى تلبسها المرأة فى مدينة بوشهر الواقعة فى إيران!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۲۵

أما النساء الأرمنيات فإنهنّ يلبسن أثوابا فضفاضة يسحبنها على أتربة الشوارع و أقذارها إذا ما سرن بها خارج منازلهن! و المرأة الأرمنية لا تخرج سافرة، كالمسلمة بيد أنها فى أغلب الأحيان تضع على وجهها قطعة رقيقة من القماش الأسود أو تلفّ رأسها بمنديل حريرى و تكتفى بهذا فقط. و هى فى الوقت نفسه تحلى يديها بالأسورة الذهبية و صدرها بالحلى النفيسة و شعرها بجواهر ثمينة متلألئة .. أما حذاؤها فيبعث شكله على القرف و الاشمئزاز لقبحه و أبشع ما فيه أزراره الزجاجية أو المعدنية!! و أكثر نساء البصرة الحسناوات يرتدين مثل هذه الأحذية الدميمة التى تستورد من المملكة المتحدة!!

و إذا كانت النساء الأوروبيات هنا قد تطبّعن ببعض طباع نساء المدينة البلديات فالرجال منهم- أعنى الأوروبيين- فما زالوا يحتفظون بملابسهم الخاصة المتكونة من بنطلون خاكى يميل إلى الصفرة و سترة لا يستطيع المرء أن يعين لها شكلا و لونا واحدا. و قد علمت أن هذا اللباس غير الجميل يقلّل من قيمة و مقام هؤلاء بين السكان الأصليين الذين يرتدون الكوفية و العقال و العباءة دائما تلك الملابس التى يعتزّون بها و يعتبرونها من مظاهرهم القومية الكريمة.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۲۷

الصابئة، الذين يقبرون الأحياء!!

۷- سبتمبر

عادت الحمى إلينا مرّة أخرى- منذ يومين- و لقد استعنا بكافة أطباء هذه المدينة من محليين و أوروبيين لكى نقضى على دابر هذا المرض الخبيث قبل أن يستفحل خطره و يتمكّن منّا!

و الواقع أنه لو لا جهود و مساعى رسل الإنسانية أولئك و لا سيما طبيب القنصلية الخاص ما استطعنا أن ننجو من قبضة هذه الحمى الخطيرة . و لقد بذل طبيب القنصلية جهودا جبّارة سنذكرها له دائما بلسان يلهج بالشكر لإخلاصه و مودّته. فلقد كان يزورنا كل يوم

مرتين و يعالجنا بتدقيق و عناية فائقة و لعلمه بأضرار الكنين الكثيرة- و هو الدواء الوحيد لمعالجة الحمى هذه- فقد كان يستعين فى أغلب الأحايين بمعالجتنا نفسيّا و بتقوية أرواحنا المعنوية لتحمّل آلام و مشاق هذا المرض. إن إصابتنا بهذا المرض كان محتملا. إن بقاء مدّة خمسة عشر يوما فى الفيلية تلك المنطقة القذرة بغير عمل و لا رغبة منا و التقلّب على أمواج شط كارون و تغير المناخ فجأة و قرب فصل المطر و عدم الوصول إلى بساتين هسپريد كان كافيا فى أن يبعث اليأس فى نفوس من هم أكثر منّا صبرا

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۲۸

و احتمالا للشدائد و أن يدعو إلى إصابتهم بأخطر من هذا المرض.

أعود إلى ذكر الطبيب العطوف فأقول إنه كان من أجل أن يخلصنا من أفكارنا السوداء اليائسة يلهينا بسرد القصص الطريفة و الأخبار عن مدينة البصرة و أهليها.

كان يقول: إن البصرة قد شيدت فوق أرض رسوبية جديدة و إنها لم تكن من المدن القديمة جدّا إذ لم تنشأ إلّا بعد وفاة النبى العربى (صلى اللّه عليه و سلّم) بأمر من الخليفة الثانى عمر (رضى اللّه عنه) فقد اتخذ منها مركزا تجاريّا و عسكريّا مهمّا فى العراق و إن تاريخ هذه المدينة الحديث ملىء بأخبار الحروب المستعرة بين الترك و الفرس للاستيلاء عليها أو التصرّف بها. و لقد كانت هذه الحروب سجالا بين الطرفين فكانوا يتناوبون فى احتلال البصرة، و أخيرا، و فى نهاية القرن الماضى و بعد محاصرة دامت أكثر من أحد عشر شهرا دخلها الفرس ظافرين و بقيت تحت النفوذ الفارسى حتى زمن السلطان كريم خان الزند .. أما بعد هذا العهد فلم يستطيع خلفاء هذا السلطان أن يحافظوا عليها ضمن ممتلكات فارس لأنهم كانوا ضعافا و إن أخطارا كثيرة أخذت تهدّد البلاد فى الصميم فدفعهم ذلك إلى أن يصرفوا النظر عن الممتلكات البعيدة و يدعوها للدول المجاورة! و هكذا انتقلت البصرة إلى نفوذ الحكم العثمانى .. و أخذت تمر بها أخطار و أحداث تركت فيها أسوأ الآثار .. فنفوسها مثلا أخذت بالتناقص و هى اليوم نصف ما كانت عليه فى السابق و تقدّر بأقل من أحد عشر ألف نسمة.

و لكن البصرة على رغم ذلك كله ما زالت تحتفظ بمركزها التجارى الممتاز القديم و لها اليوم روابط و علاقات سوقية مع الهند.

و أردف الطبيب ذلك بقوله: و إن كميات الحنطة الكبيرة التى حدثتمانى برؤيتها عند وصولكم البصرة ما هى- فى الواقع- إلّا بعض الكميات التى يرسل بها التجار إلى الهند .

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۲۹

و التمر من محاصيل هذه المدينة المهمّة الأخرى يصدّر منها سنويّا ألوف الأطنان إلى الخارج أيضا، و هذه الثمرة الغريبة تحوى شيئا كثيرا من المادة السكرية كما تحوى مقادير من الكحول التى لها شهرة عالمية لذا تكون لها أسواق رائجة خارج البلاد فتصدّر فى سلال و أقفاص تصنع من الجريد و سعف النخل اللين تحملها السفن الشراعية و البخارية!!

و النخل- زيادة على أثمارها تلك- لها فوائد جمّة أخرى إذ يستفاد من جذوعها فى إقامة الأبنية و من أوراقها فى صناعة الحصران و الحبال المحكمة و الزنابيل.

و الخلاصة أنّ الطبيب بدل أن يذكر (۳۶۰) فائدة للنخل كأى حمال شيخ ايرانى ثرثار .. فقد اختصر القول بأنها النخل .. و النخل وحدها هى التى يدين لها الشرقيون فى حياتهم .. و لا سيما المسلمين الذين يعدون وجودها مفخرة فى بلادهم .. و لا غرو فى ذلك إذ إن ثمرها يكوّن العنصر الأهم فى طعامهم و شرابهم!

يقول المؤرّخ المعروف القزوينى : «إن للنخل فوائد جمّة و إنها رمز الخير و البركة و لا تنمو إلّا فى الأقطار الإسلامية».

و يؤثر عن النبى (صلى اللّه عليه و سلّم) قوله: «أن أكرموا عماتكم النخل فإنها خلقت من فضلة طينة آدم ».

و ممّا ذكره الطبيب لنا أيضا قوله: إن البصرة تكاد تكون مجمع المذاهب

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۳۰

المختلفة التى يقارب عددها عدد ما فيها من أنواع النخل! إنك تجد النساطرة فيها و السنة و الشيعة و البابية و الوهابية و المسيحية الرومية و المسيحية الكلدية و الصابئة و اليزيدية و اليهود و الأرمن و غيرهم كل بجنب الآخر و قلّما يحدث نزاع بين أنصار هذه الطوائف التى تمارس كل منها شعائرها المذهبية الخاصة بمطلق الحرية و الاطمئنان. و من الجدير بالذكر أن طائفة الصابئة لها تقاليد و عادات مذهبية عجيبة جدّا. فليس لديهم مثلا معبد أو محراب للعبادة كما هو الحال فى المذاهب الأخرى و أصحاب هذا المذهب يقربون من الدين المسيحى باعتقادهم يوحنا كما أنهم يعتقدون أن عيسى خلفه!!

أمّا أهم طقوس هذه الفئة فهو التعميد الذى يتم بالماء للتطهر من الذنوب و الخطايا. و عملية التعميد هذه تتكرر فى حياتهم و هى من الواجبات المذهبية المرعية، و ذلك كلما أحس امرؤ بآثامه .. و إن لم يقم الواحد منهم بغسل التعميد فى الوقت المناسب فمن الواجب الختم عليه- مع بقية أفراد طائفته- أن يغتسل قبيل يوم العيد الكبير! و يسبق عملية الغسل هذه الاعتراف عند قساوستهم. كاعتراف المسيحيين تماما!

و الصابئة لا يستطيعون أن يتزوجوا بأكثر من امرأة واحدة فى حياتهم كما أنهم لا يأخذون بالختان!

و فى كل أسبوع يقوم القس عندهم بقراءة بعض الأدعية و الأوراد على الخبز لكى يجعله مباركا و بعد أن يضع عليه السمسم و يأكل قليلا منه يوزّع البقية بين الذين اغتسلوا غسل التعميد للتبرك!

إن حب المحافظة على الطهر و تجنّب الأقذار عند هذه الطائفة تكاد يبلغ مبلغ الهوس و الوسواس. و من الطريف أن قسوسهم لهم حق الزواج و لكن لا يسمح لنسائهم أن يعملن فى الدور حتى بمجرد أن يمددن أيديهن إلى أثاثها أو أى شىء آخر. إذ ينبغى على القسوس أنفسهم أن يقوموا بالأعمال المنزلية كلها من طبخ و غسل و تدبير. و أغرب من ذلك أنه يحظر لديهم أكل لحم البقر و الجاموس و الضأن و الجمل. ذلك لأنهم يعدون هذه الحيوانات بسبب خلقتها العجيبة نجسة غير طاهرة بيد أنه يسمح أكل لحم الخروف و حمله الصغير فقط

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۳۱

شريطة أن يتم ذبح هذين الحيوانين على أيدى القساوسة أنفسهم كما أنه يجب عند طبخ لحومها أن تراعى أصول النظافة بتدقيق و عناية فائقة و أن توضع فى صحاف نظيفة جدّا. و من عمليات التعميد و الغسل الضرورية التى لا بد منها اثنتان الأولى بعد الولادة و الثانية بعد الزواج. أما بعد الوفاة فلا يكون ثمة غسل قط لأن الصابئة يعدون جثة الميت أنجس الأشياء قاطبة و لذلك يتقززون و لا يتقربون منها و يعاملون المحتضر على فراش الموت معاملة و حشية لا تكاد تصدّق.

فعندما يشرف أحدهم على الموت فى سكراته الأخيرة يأتى أصحابه إليه و يحملونه إلى حفرة يحتفرونها و يضعونه فيها و الأنفاس تتردد فى صدره، و هم من حوله يجلسون القرفصاء و يبكون و ينشجون فى انتظار أن يجود بأنفاسه الأخيرة، و عندما يحين ذلك يهيلون عليه التراب بسرعة، و يعودون إلى منازلهم فى مظاهرة طريفة!!

و إذا سألت أحدهم لماذا تقومون بهذه الأدوار المضحكة و الأعمال الوحشية، أجابك .. إنه من أجل ألّا تمس أيديهم جثة الميت النجسة و لكيلا يقربوها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا!!

و تعتقد هذه الفئة أن روح الميت تترك جسده بعد أربعين يوما من وفاته و أنها تصعد إلى الملكوت الأعلى و تمثل بحضرة ذات الجلالة بخشوع!

و طول هذه المدة- الأربعين يوما- يجتمع أقرباء و أصدقاء الميت فى داره يأكلون صباح مساء من غذاء خاص يصنعه القس لهم يتكوّن من لحم الخروف و سمك و فاكهة و بعد أكل هذا الغذاء يطلب أقرب أقرباء الميت من الحضور أن يدعو اللّه لميتهم بالعفو و المغفرة!

و من البديهى أن هذه الإجراءات التى تتم طول الأربعين يوما تكلّف أهل الميت الشىء الكثير من المال، لذلك يجب على كل من

يحضر هذه (الاحتفالات) أن يقدّم هدايا مناسبة إلى أهل الميت لسد تلك النفقات!!

و إذا أغضينا عن هذا العمل الوحشى الذى تقدم عليه الصابئة للمحتضر فإننا نراهم يتميّزون بشىء كثير من سمو الخلق و كرم الطباع حتى ليضرب

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۳۲

بأمانتهم و صدقهم المثل فى تلك البلاد. و يكاد عمل و حرفة هذه الطائفة ينحصران فى صياغة الحلى الفضة و فى مصنوعات فلزية من الفضة مزينة بالمينا و الرسوم الأخاذة. و الحق أن لهم براعة حقا يدعو للعجب فى تلك المصنوعات (المينه)!!

و الصابئة- بعد كل ذلك- يتميّزون بتعصبهم لمذهبهم و محافظتهم على شعائرهم بحيث لم يستطع قسوس الموصل و رهبان البروستانت بمواعظهم الطويلة و جهودهم الجبارة التى بذلوها طوال سنوات عديدة أن يتركوا أى أثر محسوس فى عقائدهم و عاداتهم المتغلغلة فى نفوسهم تغلغلا عجيبا!!

سألت الدكتور عن محل إقامة هذه الطائفة و هل فى استطاعتى زيارتهم و الاطلاع على حياتهم الخاصة من قرب؟

فأجابنى مستنكرا بقوله: أتريدين أن تذهبى لزيارة هؤلاء القوم و لم تبرحى الفراش بعد .. و كيف تستطيعين و المياه تغطى السبل المؤدية إلى مدينتهم فى هذا الفصل الذى تفيض فيه المياه، و لو كان لك جناح لقدرت على الطيران و لم تلقى كبير عناء فى الوصول إلى منازل الصابئة، و لكن الآن عليك أن تقطعى الأهوار و المستنقعات ثمانية أيام كاملة لكى تبلغى قصدك و ليس هذا فى مكنتك و أنت على ما فيه من خور و ضعف و ما زالت الحمى تهدّدك بالعودة، إذ إن حمى هذه المدينة لا يستطيع المصاب بها أن ينجو من براثنها مرّة واحدة و بسهولة، و قد يخيل إليه أنه قضى عليها و لكنه سرعان ما يرى نفسه طريح الفراش يتجرّع أوصاب ألمها و سخونتها.

و هنا رأيتنى أقول فجأة و بغير وعى منّى: أيتها الصابئة ليحفظكم اللّه إنما أزهد فى لقائكم مخافة أن تضعونى حيّة فى اللحد كما تعملون بمحتضريكم و إلى اللقاء!!

۸- ديسمبر

ما إن تركنا الفراش و استطعنا أن نسير على أقدامنا حتى أخذنا نفكر جدّيا فى السفر من البصرة بأسرع ما فى الإمكان لننجو بجلودنا من جو هذه المدينة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۳۳

الرطب الخانق!

و لقد سألنا عن طرق المواصلات التى تربط البصرة ببغداد فقيل لنا إن ثمة شركتين تقومان بتسيير السفن البخارية بينهما الأولى شركة «لنج لندن» التى تسير سفينة كل أسبوع و هى قذرة جدّا لأنه يترك للمسافرين فيها حرية القيام بعمليات الطبخ و الغسل فى ممراتها و عنابرها. و الشركة الثانية يديرها جماعة من الأتراك و تسيّر شهريّا سفينتين بين بغداد و البصرة.

و لقد شاء الحظ و القدر أن تتأخر إحدى سفن هذه الشركة فى البصرة بسبب عطب أصابها منذ أسبوع. و اغتنمنا هذه الفرصة فأسرعنا فى حجز مكان لنا فيها و لكننا ندمنا كثيرا على ذلك و لقينا فى سفرتنا هذه الأمرين بحيث لا تكاد تقل عن سائر أيام سفرتنا من الساحل الفارسى إلى هنا! من حيث المتاعب و المشاق.

تسير الأمور فى هذه السفينة حسب مشيئة الشيطان أو الترك إنهم على الدوام يتقاضون مبالغ مختلفة من المسافرين بحجج و أسباب واهية و لم يكتفوا بذلك فحسب بل إنهم أخذوا يستعينون بأى طريقة لا- بتزاز المال و إن كان فى ذلك ما يسىء إلى الركاب و يضايقهم. فإنهم مثلا ملأوا ممرات السفينة بأقفاص الدجاج التى اشتروها من البصرة لبيعها فى بغداد بربح زهيد لا يسوى شروى نقير!

كما أن الموظفين التركك المغرورين ملؤوا مخازن السفينة بأمتعتهم و حوائجهم كلها لدرجة أنهم لم يدعوا لمن سواهم مكانا يضعون فيه حقائبهم!!

و لكن الذى يعزينا و يسرنا فى هذه السفرة الموحشة وجود رفيق طريق معنا يدعى الكابتن ديمينيس من أهل (كرسى). و لقد كان هذا لمدة قريبة ربان هذه السفينة بالذات التى تدعى باسم الموصل، و بقى يشغل هذا المنصب مدة طويلة حتى كان أن فضل عليه عملا آخر فى بغداد منذ ما يقرب من عام.

و لقد قص علينا هذا الرجل الشجاع قصته الطريفة مع التركك الشياطين كما يأتى:

منذ سنة تقريبا فكّر أولياء الأمور العثمانيون أن يعاملوا المقاولين و المتعهدين مثل معاملتهم لموظفيهم الصغار القاسية و أن يقطعوا عنهم رواتبهم أو ما يستحقونه مما فى ذمة الدولة العلية.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۳۴

و لم يكف ذلك أحد هؤلاء المقاولين- و هو يمون هذه السفينة بالفحم و له بذمة الباب العالى مبالغ مستحقة عن ذلك- و كان أن قطع الفحم عنا ذات يوم دون إنذار سابق، و أبى أن يموننا بأى شىء منه إن لم تسلم ديونه السابقة و أن يتقاضى ثمن ما نحتاج إليه من الفحم سلفا كما قال. و لقد اضطرت «الموصل» بحسب هذا العمل أن تؤخر سفرها و يطول مدة وقوفها. و لكن الغريب هو أننى على رغم ذلك تلقيت أمرا بالحركة فورا. ففتّ ذلك فى ساعدى و احترت فيما أعمله للخروج من هذا المأزق الحرج و لم أر بدّا من الذهاب إلى رئيس السفينة و تذكيره بأن المخزن ليس فيه من الفحم ما يمكن الحركة به و الوصول بسلام إلى بغداد!

و ما كدت أقول هذا للرئيس المحترم حتى رأيته يركب رأسه و يرد على بحدّة قائلا: إننا لسنا فى حاجة إلى خدماتك بعد هذا الكلام الغريب .. إذا كان يتعذّر عليك السفر بغير فحم فأرى من الأجدر أن تترك العمل و تذهب فى سبيلك!

سمّرت فيه نظراتى هنيهة أتفحص هذا المخلوق العجيب ثم قلت له دون اكتراث: ليس فى اللغة الفرنسية لفظة «يتعذر»- يستحيل- ثم وضعت يدى فى جيبى و ذهبت لحجرة قيادة السفينة.

تحركت سفينة «الموصل» و توسطت نهر دجلة و كانت تسير بخيلاء و غرور. و بعد يومين خلا المخزن من الفحم تماما. و تعذّر علىّ عندئذ تحريك ماكنة السفينة .. فكرت لحظة و لكن سرعان ما خطرت لى خاطرة هتفت لها من أعماقى فرحا و سرورا. تذكرت أن سفينتى تحمل كميات كبيرة من السمسم فأشرت على الملاحين أن يحرقوا السمسم بدل الفحم. و نفذ هؤلاء أوامرى و بعد دقائق عادت جلجلة الماكنة إلى الأسماع و كان أن تحركت تسير الهوينى كالسابق. و بعد ثمانية أيام دخلت بغداد دخول الظافرين! و كانت قيمة كميات السمسم التى استعملناها بدل الفحم تقدر بأكثر من ثلاثين ألف فرنك .. و لكم كنت فخورا ساعة وصولنا إلى بغداد، لأننى كنت قد أطعت أوامر الامبراطورية التركية إطاعة تامة و نفذتها بحذافيرها و رفعت اسم فرنسا العظيمة فى مياه دجلة!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۳۵

و من الإنصاف القول إن رئيس السفينة هذا لم يكن غبيّا بالدرجة التى تصورتها إذ إنه بعد هذه الحادثة عرف (بثاقب بصره البعيد)!! أن أمثال هذه السفرات تكلف دولته كثيرا و أنه لا سبيل إلى الحصول على الفحم لأن الباب العالى لا يدفع دانقا واحدا، لذلك هداه تفكيره النير إلى حل وجيه و هو أن يسد نفقات الفحم من أثمان (۸۰۰) جمل استولت عليها سلطات الأمن من قبيلة كانت خارجة عن القانون منذ وقت قريب!!

قدم هذا الاقتراح إلى المسؤولين و أخذ هؤلاء به فورا. فدفع صاحبنا الرئيس إلى المقاول بكل هذا العدد الضخم من الجمال و لما رأى هذا أنه يأخذ أكثر مما يستحق، قدم للرئيس ما بين ۲۰۰- ۳۰۰ جملا حلوانا (بقشيشا) له.

و هكذا تمّت الصفقة ربح المقاول و الرئيس على السواء!!

و عند ما بلغ الكابتن هذا الحد أردف قائلا: الخلاصة أن القضايا أخذت تجرى على النحو المطلوب إلّا أننى وقعت فى مأزق حرج إذ

كان عليّ أن أزرع السمسم لكى ينضج جمالا!!

و كان لنا رفيق سفر آخر- إلى جانب مسيو ديمينيس- إلّا أن مخايل البله و الجنون كانت تبدو عليه. و مما حدثنا به رأيه أن السفن التركية تغوص فى الطين أكثر من السفن الإنكليزية، و هو لهذا السبب يفضل ركوب السفن الأولى فى سفراته بين البصرة و بغداد لا لشىء إلّا لأنه يتاح له فيها الصيد على سواحل دجلة؟!

و عند ما وصل الحديث إلى ذكر الصيد و غوص السفينة فى الطين تذكرت ما لقيناه فى شط كارون من نصب و عذاب و لهذا رأيتنى أسأل الكابتن عن المدة التى تستغرقها سفرتنا هذه و عمّا يحتمل أن نلاقيه من مشاق و متاعب ..

فكّر بطل السمسم لحظة ثم قال: لا خوف على سفينتنا من الغوص فى هذه الأيام التى ترتفع فيها المياه. أمّا المدّة التى تستغرقها سفرتنا فلا أرى أنها تتجاوز أسبوعا!! و لكنى فى الوقت نفسه لا أستطيع أن أجزم أو أقطع بقولى هذا ..

إننى أعمل فى هذا الطريق منذ سنوات عدّة و لم يتفق أن وصلت إلى بغداد فى سفرتين متتاليتين بمدة واحدة، كما لم تتوقف سفينتى مرتين فى محل

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۳۶

واحد بفعل وجود الطين و الوحل. ذلك لأن تيار الماء السريع يتغيّر من يوم لآخر، و من أسبوع لآخر ثم هذا التيار يأخذ معه الطين إلى محلات عميقة من النهر و فى أغلب الأحايين يتحتم على الربان أن يستعين «بالشاقول» لمعرفة مدى عمق النهر و لا سيما فى فصل الصيف عند ما يهبط الماء فتصعب عندئذ قيادة السفينة. و يتفق فى مثل هذه الأحوال أن تغوص السفينة فى الطين عدّة أيام إن لم تمتد إلى أسابيع و لا تستطيع أن تخرج إلّا بعد تفريغها من المسافرين و مما تحمل من بضائع بزوارق إلى الساحل حتى أن هذه العملية ربما لا تجد فيها نفعا بعض الأحيان فتضطر السفينة أن تنتظر مرور سفينة أخرى بها لتنتشلها من الأوحال و الطين و تكون عندئذ خالية من ركابها و من بضائعها ..

و كثيرا ما يتفق أن تنتشل السفينة و تسير عشر كيلومترات و تضطر إلى الوقوف مرة أخرى بسبب الطين أيضا و تعاد العملية من جديد عندئذ و ذلك بنقل المسافرين إلى الساحل بعد تفريغها من البضائع تفريغا يشارك فيه المسافرون أنفسهم صغارهم و كبارهم شيبهم و شبانهم نساؤهم و رجالهم!!

كان رفيقنا الصياد يصغى إلى هذا الحديث باهتمام و عند ما اتمّ الكابتن كلامه قال: إننى لمتأسف جدّا أن أسافر فى هذا الفصل و على مثل هذه السفينة و لو كنت أعلم بكل هذه التفاصيل لأجلت موعد سفرى إلى الصيف الذى تزيد فيه حوادث غوص السفن فى الأوحال!!

و لقد زعقت عليه بقولى: و إنى كذلك متأسفة لأنك لم تعلم ذلك قبل الآن، و تسافر فى وقت غير مناسب. و لكنى أنا جد مسرورة لسفرى الآن لأنى لا أرغب- على أى حال- فى أن أقوم بدور حمال و إن كان من مخزن السفينة إلى الساحل!

بلغت السفينة بعد عدّة ساعات قرية صغيرة تسمّى «القرنة» و هى تقع فى مكان يلتقى فيه نهرا دجلة و الفرات و يتكوّن من هذا الالتقاء ما يسمّى بشط العرب. تشير المعلومات التاريخية القديمة إلى أن هذه القرية كانت من أجمل بقاع العالم يومئذ حتى إنها كانت تسمى جنة الأرض. و لكنها اليوم و يا للأسف الشديد، لم يبق من ذلك الفتون أى شىء، و لا يطالعك فيها إلّا ساحل قذر

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۳۷

مدخل القرنة (ملتقى نهرى دجلة و الفرات)

تغطّيه مياه الفيضان بحيث لا يبدو منه فى بعض الأيام شىء!

و بعد أن ينزاح عنها الماء تنقلب إلى منطقة واسعة من الأهوار تكون موطنا للأمراض الوبيئة كما تستخدم محلّا للجواميس فتغطى فيها أجسامها، بحيث لا يبدو منها شىء سوى الرؤوس.

تبدو لنا عن كثب عدّة بيوت من الطين و أمامها عدد من الجواميس و هى غاطسة فى مجارى قذرة للمياه. و يبدو هناك جذع شجرة قديمة يخيّل لى أن عمرها ثلاثمائة سنة، و لا شىء غير هذا فى تلك المدينة التى كانت تعد جنة اللّه فى أرضه! و لا ريب أن أجدادنا لو رفعوا رؤوسهم و رأوا «القرنة» على ما هى عليه الآن لأنكروا عيونهم و أخذهم العجب العجاب!

۹- ديسمبر ۱۸۸۱

وصلنا إلى مدينة بابل اليوم، و هذه لم تكن أكثر من تل تراب بسيط،

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۳۸

مقبرة العزير

و لكن «اسدراس» الذى كان ضمن الأسرى الإسرائيليين و استطاع أن ينجى مواطنيه من ذل الأسر و يعود بهم إلى بيت المقدس يرقد هنا على ساحل دجلة فى مرقد هادئ غير فخم.

توقفت سفينتنا قبالة المرقد بعض الوقت لكى تحمل اليهود الذين جاؤوا لزيارته و من السهولة أن أرسم صورة لمرقد هذا النبى. بنايته متكونة من قبة صنعت من الكاشى و ذلك على طراز و أسلوب الأبنية الإيرانية التى كانت معروفة فى زمن الشاه عباس الكبير. و يغلب على الظن أنه أنشئ مكان بناية قديمة مندثرة إذ تذكر روايات من التوراة أن اليهود كانوا يأتون لزيارة هذا المكان بالذات فى الزمن القديم كما هو اليوم حال الذين يفدون زرافات و وحدانا و فى موسم خاصة لمرقد هذا النبى!

تعتمد شركات السفر النهرية فى بلاد ما بين النهرين على أمثال هؤلاء المسافرين الذين يقصدون زيارة أنبيائهم و أئمتهم المختلفين، و لو حظر ذلك

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۳۹

فى يوم ما فإن هذه الشركات- و لا شك- ستعلن إفلاسها و لا يسعها أن تعمل البتة!

على مقربة من الجهة اليمنى توجد أشجار على أرض معشوشبة زاهية و هذه الأشجار هى أشجار غابة يعدها أهالى هذه المنطقة مقدسة لم يمتد إليها معول و لا فأس و إذا سولت لأحدهم نفسه أن يقتطع منها ساقا أو جذعا فإنهم يعتقدون أنه يموت بسبب ذلك إن عاجلا أو آجلا بما لا يقبل الشك أبدا.

و على جوانب هذه الغابة خيم بعض الأعراب لحراستها و منع الاقتراب منها إن حدث ذلك. و لعل هذه الحراسة تقليدية أو أنها وضعت لحراسة مقبرة تنزل من نفوس السابلة منزلة التقديس لأحد أبناء الإمام الكاظم المدفونين هناك.

و من الجدير بالذكر أنه أجيز لهؤلاء الحراس برفع الأغصان اليابسة و المتساقطة على الأرض فقط و إشعالها فى الشتاء. أما الأغصان الطرية فمحظور عليهم الاقتراب منها حتى أنهم يفضلون الموت بردا على أن يمدوا أيديهم إليها.

و إذا سألت عن علّة هذا التقديس فلا يستطيع أحد منهم أن يجيبك.

و أعتقد أن هذا التقديس من بقايا طقوس و شعائر كانت عند العيلاميين لأن الروايات القديمة تذكر أن أهالى شوش كانوا يخفون آلهتهم فى هذه الغابة!

۱۰- ديسمبر:

من المعروف أن المصابين بالأمراض النفسية يعالجون فى العادة فى ركوبهم بالسفن التى تمخر عباب البحار و الأنهر للاطلاع على مناظر الساحل الجميلة. و لكن الأمر يختلف هنا فى نهر دجلة إذ لا يستطيع المرء أن يشاهد أى شىء على ضفتيه ذلك لأنه يقع فى واد عميق و لا يبدو شىء من مناظرها الممتعة للناظر!

عبرنا هـذا الصـباح من نهر صـغير كان يقع على جانبنا الأيسـر و بعـد عـدّة دقائق بلغنا مدينـة العمارة و وقفنا عنـدها. أبنيـة هذه المدينة جديدة و جميلة و تمر

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۴۰

بها قوافل عديدة تصل إليها من مدينة كرمانشاه و ششتر، تحمل الحنطة و سائر الحبوب الأخرى إلى بغداد.

فى هـذه المدينـة- العمارة- أفرغت حمولـة سـفينتنا من الـدجاج و التمر أو أبدلت بغيرها من الدجاج و التمر. و لقد تعجبت كثيرا لهذا الأمر و كل من سألته لم يستطع أن يوضح لى هذا اللغز المعمى من أن يستبدل دجاج بدجاج و تمر بتمر من نفس النوع و بقدر الكمية السابقة!!

۱۱- ديسمبر:

ارتفعت شـكوى صديقنا الصـياد هذا اليوم بعد مرور ثلاثة أيام و لم يتح له الصـيد على الضـفتين، و أن هذه السفرة لم تفده شيئا ما، و أى غلط ارتكبه بقيامه بهـذه السـفرة وراح يلعن الأولين و الآخرين .. و هنا ركب الغضب الكابتن و قال محتـدّا: إن كنت تريـد الصـيد فأنت جدير فى هذه الحالة أن تهبط فى مدينة قربة على ساحل نهر دجلة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۴۱

كوت العمارة لأنه يسـعك هناك التصـيد بسـهولة. و لا سـيما أنه بعد ثلاثة أيام سـتمر من هذه المدينة سـفينة انكليزية اسـمها «خليفة» فتستطيع عندئذ أن تقلك إلى بغداد ..

صاح صـديقنا الأبله فرحا بهـذه النصائـح و شـكر الكابتن و تركنا فى مدينـة كوت العمارة إلى غير لقاء! و لكننا لم نكد نبتعد قليلا عنه حتى غاصت سـفينتنا ثلاث مرات فى الأوحال و الطين. إلّا أننا لم نلق صعوبة كثيرة فى إخراجها منها و متابعة سفرها لأنه بمجرّد أن كنا نهبط منها إلى الضفة كان وزنها يخف و تتابع سيرها كالسابق.

و لقـد أفـدنا- أنـا وزوجى- من هـذه الفترات القصـيرة التى كـانت تتوقف فيهـا سـفينتنا فى تلك الأحوال إذ كنا نـذهب إلى مضارب العشائر التى كانت فى الضفتين و نطلع على نمط حياة أفرادها.

لرجال هـذه العشائر سـمات خشـنة و تبدو عليهم مخايل الوحشـية (كذا)! أمّا ألبسـتهم فبسـيطة ساذجة و هى ثوب فضـفاض طويل من الصوف بلون البلوط أو بلون أزرق و يغطّون رؤوسـهم بمناديل (الكوفيـة) يمسـكها حبل (؟) من صوف الجمال (العقال) و فى أيديهم عصى طويلة يتكئون عليها بغرور و خيلاء!

و لنسـاء هـذه العشائر ذوات اللون الحنطى الرائق صـفات الرجال و يشـبهن إلى حـد كبير هؤلاء الرجال فى كثير من المظاهر. فلباسـهن يشبه لباسهم و لا يختلفن عنهم إلا بعدة حلقات علقنها بأنوفهن من الفضة .. أو بالخلاخل التى يزين بها أرجلهن ..

شيخ من قبيلة شمر

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۴۲

و يخيل إلى أن هـذه العشائر متشـعبة عن قبيلـة بنى لام التى عرفت بتربية الجياد العربية الأصـيلة و تصديرها إلى الخارج أو عشـيرة ألبو محمد التى تقطن فى جنوب العمارة، و التى عرفت بتربية الجواميس أو شـمر التى تضرب مضاربها قرب بغداد و يعدون من أشد أعداء الدولـة العثمانيـة الأشـداء .. و هـذه القبائـل معروفـة بالشـجاعة و البـأس و بأنهـا تعيش على الغارة و السـرقة مما يجاورها و أنها لا تجد غضاضة أو مسبة فى ذلك بل على العكس قد تحسبه من المفاخر التى تعتد بها ..

يـدور لغـط فى غرفـة القيادة الآن، ذلك لأن سائق السـفينة لم يسـتطع فى المرة الثانيـة التى ارتطمت فيها بالأوحال أن يخرجها دون أن يلحق بالسـفينة عطبا حال الآن دون متابعة السير! و فى هذه الفترة التى توقفنا بها شهدنا فصلا ممتعا وقع بين القبطانين القديم و الجديد:

و أخذ الكابتن دمينيس الشجاع فى توضيح الأخطاء التى وقع بها غريمه و الأخطار التى تهددنا الآن كالغرق، ما لم نتدبر الأمر، و قال إنه لو كان هو قائد السفينة لاستطاع- على عطبها- لا أن يسيرها بسلام فى نهر متلاطم الأمواج بل ليقطع بحر باتاكنى على خطورته و ثورته دون أن يضطرنا إلى الوقوف، ثم ظل يتكلم حتى كاد سائق السفينة يخرج من طوره و يقع بينهما ما لا يحمد عقباه .. و لكن اللّه سلم كما أننا لم يطل وقوفنا كثيرا و لم يقع لسفينتنا أو لنا أى مكروه فتابعنا السير عودا لا نلوى على شىء!!

۱۲- ديسمبر:

على رغم المشادة التى وقعت بين صديقنا الكابتن دمينيسى و قائد السفينة فقد أبدى الأخير لطفا و تودد إلينا و نزل على رغبتنا فى التوقف عند طيسفون (المدائن سلمان پاك) لمشاهدة خرائبها. و لقد قطعت السفينة مدة أربع ساعات للوصول إلى شبه الجزيرة التى كانت عاصمة كسرى برويز فى حين

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۴۳

طاق كسرى فى سلمان پاك من الخلف

كان يستطيع أن يقطع طريقه فى عشرين دقيقة من خلال البرزخ الذى اعترضنا.

و الواقع أنه كانت فرصة سعيدة أن يتاح لنا مشاهدة طاق كسرى و التمتع برؤية هذا القصر الفارسى العظيم.

إن هذه البناية المتصدعة مبنية بالآجر و تقدر مساحة القسم الأول منها ب (۹۱) م و ارتفاعه (۳۵) م و يتوسطه فناء وسيع مسقف معقود عرضه ۳۵ م و هو أعلى أقسام هذه البناية التاريخية، و على الجانب الأيمن و الأيسر من هذا الفناء الوسيع كانت توجد حجر لإقامة الحرس و موظفى البلاط الملكى، و من المعلوم أن حجر الحريم لم تكن إلا فى القسم الخلفى، ذلك لأن أكاسرة الساسانيين كانوا يتحاشون أن تكون نساؤهم موضع أنظار الرجال الغرباء.

و هذه العادة ما زالت متبعة اليوم فى إيران.

قصر طيسفون الملكى يختلف كثيرا عن قصر پرسبليس من حيث الشكل و لكنهما يتشابهان كثيرا من حيث التقسيم إلى قسمين الأول يختص بدوائر

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۴۴

طاق كسرى من الأمام

البلاط و محل جلوس الشاه للنظر فى شؤون الرعية و الثانى لإقامة الشاه الخاصة و ما يتبع ذلك من حجر الحريم و الخدم و الحشم .. هذا ما اعتقدوه و لعلى على صواب!

جانبا القصر متهدمان تماما و لم يبق منهما شىء و بصعوبة يستطيع المرء أن يتمثل الحيطان و الأبهاء الضخمة التى كانت تحيط بهذين الجانبين.

أما عمارة الحريم و الأبنية الفرعية الأخرى فيظهر أنها كانت مبنية بالآجر و الطين كما هو الحال فى قصر پرسبليس الذى شاهدناه. و لكن لم يبق من هذه العمارة و توابعها شىء و هى اليوم تبدو للناظر كأنها كثب من الرمل أو التراب! و لقد أجريت فيها حفريات قليلة غير منظمة دون أن تصل إلى نتيجة أو فائدة تذكر. على أنه عثر فيها على شىء من المسكوكات البارثية و قطع من الخزف.

و الملحوظة المهمة هنا هى أن المسكوكات الساسانية المعثور عليها كانت أقل مما عثر عليه من المسكوكات البارثية، و هذا يؤيد رأى بعض المؤرخين

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۴۵

القدماء من أن تأسيس هذه المدينة كان بواسطة (واردان)(Vardane) الذى لم يعرف عنه أى شىء و يظن أنه من سلسلة ملوك

الاشكانيين.

و ليس للقسم الأول هذا من القصر منفذ إلى الخارج ما عدا بابين صغيرين فى الطبقة التحتانية و بوابة كبيرة فى مقدمة البناية تكون بمثابة المدخل الرئيسى. على أن لهذا القسم أربع طبقات تزين كلّا منها أعمدة صغيرة جميلة، و هذه تتصل بالطبقة العليا بعضها مع بعض بواسطة حنايا متقاربة ..

و يخيل للمرء أن هذه الأعمدة لم تنشأ إلا- للزينة للوهلة الأولى، إلا- أنها فى الحقيقة أنشأت لأجل استحكام البناية و الثبات إزاء العوارض التى تصيبها كالزلازل و ما شابهها.

و تذكر روايات المؤرخين القدامى أن هذه الأعمدة كانت مغطاة بصفحات من الفضة، غير أننى لا- أعتقد ذلك بل ربما كانت صفحات من معدن آخر مطلية بالفضة فقط لا غير .. مثل القبب المطلية فى قم و الشاه عبد العظيم فى إيران اليوم. و لكن من المسلّم على أى حال أن آجر هذه الأعمدة كانت مغطاة بمعدن من معادن الفضة أو ما سواها، ذلك لأنها غير متناسقة و غير مصقولة.

عند ما يدخل الإنسان فى هذا البهو العظيم يؤخذ برهبة منه، و يستولى عليه العجب العجاب لضخامته و عظمته على رغم مرور تلك العصور المتلاحقة من تاريخ إنشائه. و بعض أجزاء الطاق العلوية قد أصابها التصدع فانهدم و يبدو اليوم على شكل خرابة تقذى البصر!

و يعتقد المسلمون أنه لم يصب الإيوان التصدع إلا فى يوم مولد النبى محمد (صلى اللّه عليه و سلم) و ذلك بالاهتزاز الذى تولاه فرحا بهذه المناسبة السعيدة .. على أنه ما زالت أقسام من سليمة لم تمتد إليها يد الهدم، و ما زالت تحتفظ برونقها القديم و شكلها الأول.

يشاهد فى هذه الأقسام السليمة أنابيب كثيرة من الفخار، و يقول العرب إنها كانت تستعمل فى إنارة مصابيح البهو الكبير التى كانت تحيله إلى صباح نير فى ديجور الليل المظلم! و فى نهاية هذا البهو كانت بوابة تصل القسم الثانى بالأول من القصر و ما زال محلها ظاهرا. و لقد كان الشاه يعبر خلالها

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۴۶

إلى محل العرش و يجلس على الأريكة للنظر فى أمور الرعية و شؤون الامبراطورية!

و من الطرائف التى تذكر عن هذا القصر أنه كانت تعلق قبالة الطاق ستارة طويلة عريضة، و عند ما كانت الشمس تبزغ و تصل إلى سمت تعبر أضواؤها خلال الستارة يكون ذلك موعد قدوم الشهنشاه، فتتخذ الترتيبات اللازمة و يستعد الجميع لاستقباله، و يشير الشاعر الفارسى المعروف الفردوسى إلى هذا المعنى أيضا فيما يؤثر عنه فى الأخبار و الأشعار.

و تذكر الروايات أن ستائر أخرى كانت تزين حيطان البهو العظيم و هى مزركشة بالذهب الخالص البرّاق و أن الأعمدة كانت مغطاة بصفحات من الفضة المطلية، و أرض الفناء قد فرشت بالسجاجيد النفيسة و أقمشة حرير علقت هنا و هناك للزينة أيضا .. و فى صدر المكان كان موضع أريكة العرش المرتفعة المصنوعة من العاج الأبيض الرائق و عندما كان الشاهنشاه يتربع عليها بملابسه الملونة الجميلة يتحلّق حوله أفراد الحاشية الملكية و موظفو البلاط فيضاف إلى روعة المنظر و جلاله!

أمّا فى الليل فكانت ثمة ألوف من المصابيح من الفضة و الذهب الجميلة معلّقة فى سقف البهو و هى تضاهى النجوم بفتنتها و إضاءتها و تحيل المكان إلى نهار مشرق.

و لكن المؤسف أن تقلب الزمان و مرور تلك الأعوام الطويلة و غارات اللصوص، كل ذلك لم يبق شيئا من نفائس هذا المكان و روعته و عظمته اليوم، إلّا أن هيكل القصر العام ما زال قائما محافظا على شكله الأول على رغم حملات الروم و العرب و التتر الذين لم يستطيعوا أن يمسوه بسوء و محاولاتهم المكررة لهدمه و محوه من وجه الأرض، و كل ما استطاعوا أن هدموا بعض أقسامه و حملوا نفائسه و مجوهراته و قسما من آجره التى كانت تزينها المعادن المختلفة.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۴۷

۱۳- ديسمبر:

عند ما أرتقى السلّم المتهدم للمنائر سواء منها القصيرة أو الطويلة لا يلفت نظرى شيء. ذلك لأنه يضيق نفس المرء فى تلك الأحوال و يصاب بالزكام. و بعد أن يصعد أربعمائة أو خمسمائة درجة يصل إلى قمة السطح و هناك يتعرّض للهواء البارد، و فى أقصى درجات الخوف و الهلع ينقل بصره فى المشاهد التى تترامى أمامه و هى لا تعدو مناظر سطوح الدور التى تعلوها المداخن و قطع من أراض معشوشبة خضر و صحارى رمادية قاحلة يستخفى عندها كل شيء .. و لكم تكون هذه المناظر باعثة على الضجر و القرف لمن أتيح له أن يتمتع بمناظر الجبال الشاهقة و البحار الزرق البعيدة ..

و على أى حال و بعد لأى و نصب شديد يهبط المرء، و الشيء الوحيد الذى يسره فى تلك الحالة هو أنه استطاع أن يضع رجله على الأرض مرّة ثانية، و يتخلّص من الكابوس الذى كان جاثما على صدره!!

تذكرت كل ذلك و أنا أرتقى خرائب قصر طيسفون على يدى و رجلى و ألقى فى ذلك الأمرّين فترحمت على الأتعاب التى كنت ألقاها فى صعود تلك المنائر ..

أنا الآن فى محل يرتفع عشرين مترا عن سطح الأرض و علقت نفسى برواق مظلم ليس فيه سوى الخفافيش و الطيور أى لا يوجد غير سكنة هذا المكان المقفر من تلك الحيوانات ..

و أخيرا و بتعب شديد استطعت أن أواصل نفسى إلى السطح و أرى هذا القصر التاريخى العظيم من أعلى بعد أن رأيته من أسفل.

من هذا المكان المرتفع أستطيع أن أرى بادية ممتدة يشقها نهر دجلة من الوسط. و بواسطة المنظار الصغير الذى أحمله معى فى الرحلات لا أستطيع أن أرى مكان مدينة طيسفون القديمة التى يضرب فيها أفراد من القبائل العربية

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۴۸

خيامهم المسمرة الآن فحسب بل أرى مقبرة سلمان الفارسى .. كما أستطيع أن أرى على الضفة الأخرى من النهر كثبانا و تلالا هى من بقايا آثار مدينة «سلوقية» المشهورة، و يخيل إلىّ الآن فى هذه الحالة أن هاتين المدينتين و أقصد طيسفون و سلوقية كانتا كأختين عاشتا معا بغيرة و حسد و قضيا نحبهما معا أيضا ..

إذا كانت مدينة طيسفون قد أنشئت بأيدى البارثيين أو أنشأها المتأخرون من ملوك الهخامنشيين و لها الحق أن تفتخر بقدمها التاريخى، فمدينة سلوقية التى وجدت فى زمن أولياء الاسكندر استطاعت بمدّة قصيرة أن تنافس غريمتها طيسفون و أن تحتل مكانها بين المدن الفارسية و أن تتقدّم و تترقى يوما بعد آخر على حين ظلّت طيسفون يخيّم عليها الأسى و الحزن و تعسكر فيها جيوش «سيت» الغازية.

و أخيرا استطاعت هذه المدينة اليونانية النشأة أن تبز المدن الأخرى المجاورة من حيث الرقى و التقدّم فتمركزت فيها الثروة و أصبحت مركزا من المراكز التجارية المهمة، كما أن نفوسها أخذت فى التزايد حتى أصبحت عدّتها ستمائة ألف نسمة. و فى زمن پلين(Pline) كانت المدينة تتمتع بحرية واسعة و كانت العادات و التقاليد الغربية هى السائدة فيها و لم يكن شيء من الروح الشرقية المتوحشة يتحكم فى أمور الناس. فلقد كان لها مجلس شيوخ يتكوّن من ثلاثين عضوا ينتخبون من حكماء القوم و سراتهم .. و باختصار أقول إن الشعب كان يشارك فى إدارة أموره و كيفية حكمه كما كان فيها جيش يفوق أهالى سلوقية من حيث الحكم و الإدارة و انشقوا على أنفسهم طوائف و فرقا، كل منها تناهض الأخرى حتى انتهى بهم الأمر إلى أن يلوذ زعماء الطوائف

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۴۹

الضعيفة منهم الى أعدائهم البارثيين الأشداء ليحكموا فيما بينهم من الخلافات و النزاع، أو لكى يعينوهم على خصومهم السياسيين فى

الداخل. و كان هذا سببا فى تدهور مدينة سلوقية العظيمة رويدا رويدا و انحطاطها و سقوطها، على أنه فى زمن ماركـ انطونيو أحرق لوسيوس وروس المدينة- على خلاف المعاهدة المعقودة- و ذلك بعد أن أباح جنده النهب و السلب و القتل .. و أدهى من ذلك أن أهالى المدينة ما كادوا يتجرعون صاب تلك المآسى و المحن حتى دهمهم وباء الطاعون فحصدهم حصدا، و انقلبت سلوقية من تلك الحالة الزاهرة إلى حال لا تحسد عليها البتة من الفقر و العوز و الخراب و لم تستطع أن تقف على رجليها منذ ذلك اليوم.

و لقد تصرّف سورا بها مدة و فى النهاية ضمّها الاسسانيون إلى امبراطوريتهم فعادت مرّة أخرى إحدى الضواحى التابعة لطيسفون ..

و اليوم لم يبق من آثار مدينة سلوقية هذه شىء سوى كثيب من الرمل، و إن الأراضى الزراعية العامرة التى كانت تحت إمرتها حوّلت إلى مناطق بور أو مستنقعات!!

و على أى حال .. بدأت الشمس تجنح إلى المغيب لذلك اضطررنا إلى أن نصرف النظر عن مشاهدة جزئيات آثار طيسفون و توابعها و أن نعجل فى العودة إلى الضفة لنأخذ مكاننا فى السفينة كما اتفقنا مع قائدها.

و لقد كانت عودتنا من طريق ضيق شقه اللصوص و السراق إلى هذه الخرائب التاريخية و كان مملوءا بالأشواك و أعشاب الأهوار و المستنقعات و لقينا الأمرّين فى العبور خلالها إلى ضفة النهر.

و بمجرّد أن اختفت الشمس وراء الأفق و حرمتنا أشعتها الضعيفة الواهنة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۵۰

و قلبت المكان إلى ظلام، هبطت درجة الحرارة فجأة، و بصورة سريعة حتى أخذنا نشعر بالبرد القارس بعد أن كنا نشكو من القيظ!

جلست على الشاطئ أتقبض من البرد و أحاول أن أرى أضواء السفينة و لكن كان ذلك دون جدوى! لقد كانت عينى تعشى و لا تستطيع أن تخترق ظلمة الليل الذى هبط علينا بغتة، كما كانت أذنى قد أصابها الصمم من جرّاء التعب الذى لقيناه خلال جولتنا اليوم.

لذا كنت أتمنى أن أصل إلى السفينة بأسرع ما يمكن لآخذ نصيبا من الراحة و لكن التعب كان يشدّنى إلى الأرض و لا أرى أثرا لسفينتنا .. و هنا رأيت الكابتن دمينيسى يدور حولنا بضيق ينظر تارة حوالينا بخوف و حذر و تارة يشعل نارا يقربها منا ليخفف من وطأة برودة الجو و لينير أمامنا الطريق لمشاهدة السفينة التى لا ندرى ما الذى حصل لها.

و أخيرا رأيته يقول و هو يتلفت يمنة و يسرة بما يشبه الهمس:

«أترون هذه النيران المشتعلة فى أطرافنا؟ هذه نيران أبناء قبائل هذه المناطق المتوحشة و إذا علموا بمكاننا و بقلّة عددنا فإنه من المؤكد لن يتأخروا عن الإغارة علينا و سلبنا من غير أدنى تردد!!» ثمّ أضاف قائلا: «إنه لم يكد يمضى شهر- بعد- على سلبهم القنصل البريطانى هنا فى هذا المكان بعينه- سلبوه بحيث لم يبقوا له إلّا ما كان معه من أوراق و صحف الجرائد. و لقد استطاع- من حسن الحظ- أن يصنع لنفسه ثوبا رقيقا من صفحات جريدة التايمس- بعد أن تركه السراق و اللصوص المتوحشون- و أن يدخل بغداد بهذا الشكل المضحك المزرى!! إلّا أننى لا أعتقد أنهم إذا حملوا علينا و نهبونا أن يكتفوا بذلك و يتركونا لسبيلنا .. لذلك أرى من الحيطة أن نطفئ نيراننا و أن نخفى رمادها فى هذه الأوحال كيلا نبقى أثرا يدل علينا .. ينبغى أن نفر سريعا سريعا و أن نصل بأسرع ما يمكن إلى السفينة!! ما دام الأفق بعد لم يظلم ظلاما دامسا فإن على يميننا أرضا صعبة العبور لكثرة ما فيها من أشواك و نباتات برية و على يسارنا شاطئ النهر مهدّما أو ان الماء قد غطاه و لا يمكن فى هذه الحالة الوصول إلى الضفة و من ثم إلى السفينة إذا ما هبط الظلام تماما اللهم إلّا عند ما يرتفع القمر إلى كبد السماء فتنير أشعته لنا شعاب الطريق الوعر .. و حتى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۵۱

فى هذه الحالة يواجهنا خطر آخر و تقابلنا صعاب غير التى ذكرت، و أعنى أنه ينبغى أن نرمى بأنفسنا فى النهر و نذهب إلى السفينة سباحة إذ لم نستطع أن نجد ما يحملنا إليها»!

بعثت كلمات الكابتن فى أنفسنا الخوف و الرعب فنظرنا إليه مدهوشين مأخوذين و لا سيما أننا لم نملك من السلاح ما ندافع به عن

أنفسنا زيادة على التعب و الجوع و البرد، كل ذلك قد أخذ منا مأخذا كبيرا، لذا كانت كل ثانية تمرّ علينا و كأنها يوم كامل ثقيل .. أخذنا نتشاور فى أسهل و أسرع طريقة نصل بها إلى السفينة، لنتخلص مما استولى علينا من الخوف الذى أخذ يتزايد ثانية بعد ثانية .. و فى هذه الأثناء ارتفع صوت أمواج ماء النهر يقطع صمت الليل البهيم و بدّد بغير تردّد ركض الكابتن دمينيسى إلى جهة الضفة و رأى قاربا شراعيا قادما من كوت العمارة و هو يعبر خلال هذا الساحل. و هنا تكلّم الكابتن مع ركابه و رجاهم أن يحملونا إلى السفينة و كان ذلك!

و بعد مسيرة ساعة كاملة أخذت مصابيح السفينة تتراءى لنا خافتة و استطاع القارب أن يوصلنا إليها فامتطيناها و نحن بين مصدقين و مكذبين! و ما كادت السفينة تسير قليلا حتى غاصت فى الأوحال و توقفت عن الحركة، و لم يستطع عمالها من تخليصها و تسييرها مرّة أخرى إلّا بعد جهد جهيد بذلوه فى عدّة ساعات مضنية! لذلك لم أستطع أن أذهب إلى صالون السفينة إلّا فى منتصف الليل. و هذا الصالون هو غرفة النوم و غرفة العمل و الأكل و الاستراحة لجميع المسافرين!! و عليك بعد الآن أن تقدّر الراحة التى يصيبها راكب مثل هذه السفينة اللعين!!

على أى حال فرشنا سفرة الطعام و ازدردنا عدّة لقيمات على مضض ثم تمددنا بقصد الاستراحة نتجاذب أطراف الحديث و لكن لا ذكر عن أفراد القبائل المتوحشين و الأثواب التى تصنع من جرائد التايمس. و لقد شكرت اللّه عدّة مرات لنجاتنا مما كان يتهددنا من تلك الأخطار و المصائب!

و بعد أن أخذنا نصيبنا من الراحة و التقط الكابتن ديمينيسى أنفاسه رأيناه

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۵۲

يتحامل على نفسه و ينادى قائد السفينة و يقول له بشيء من الحدّة: «اننى كنت يائسا من العشاء هذه الليلة فى السفينة .. ماذا اتفق لكم حتى حال دون مجيئكم إلى الساحل؟

لا شيء.

كيف لا شيء .. ألم نتفق على أن تعودوا إلينا بعد ثلاث ساعات من نزولنا على الشاطئ؟ فما علّة تأخّركم عن ذلك؟

أجاب القائد بعدم مبالاة، و هو يدير رأسه بقوله: «إننى تأخرت؟! أبدا أبدا .. إننى لم أتأخر. عليك أن تثبت تقصيرى.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۵۳

بغداد أجمل من اسلامبول و دجلة أروع من البسفور

۱۴- ديسمبر ۱۸۸۱:

عمّال السفينة يروحون و يغدون بعجلة و اضطراب فى الصالون، هذا يمسك بأذيال ذلك و هذا يصرخ بأعلى صوته ينادى آخر .. و هنا يجب علىّ أن أقول إن سفينة «الموصل» لها ميزة أخرى غير التى ذكرتها من قبل و هى أن صالونها لم يكن فى الواقع إلّا الممرات الجانبية الضيقة و إن هذا الصالون هو محل راحة المسافرين الوحيد فعليك تقدير ما كنا نحن المساكين فيه ..

و مما يكن من أمر فإننا بلغنا بغداد و السفينة ألقت مرساتها فى المحل المعيّن و كان ذلك مع بزوغ الشمس و ارتداد جحافل الليل البهيم، و لقد قمت من النوم استعدادا للهبوط و ما كدت أتجاوز الصالون إلى الخارج حتى وجدت على مقدمة السفينة و على أقفاص الدجاج ندى متكاثفا يخيّل إلى الرائى أنه بقايا برد متساقط .. و لقد قيل لنا إن هذه هى المرّة الأولى التى يتجمد فيها الماء و يكون ذلك بمثابة إعلان لقدوم فصل الشتاء. بيد أننى كنت فرحة جذلة لا لشيء إلّا أننى نجوت من قضاء مثل هذه الليلة فى طيسفون.

الواقع أن مناخ البلدان الشرقية يبعث على العجب و الدهش، حتى الشتاء لا يستطيع أن يلبس الأرض لباس الأسى، و كل ما يحدث هو

أن يتغير منظرها بعض الشيء فقط. و مع أن الهواء بارد فما زالت الأشجار مخضرة- كما تبدو و كأن الفصل فصل ربيع لا شتاء!! ها هى أشعة الشمس تملأ السماء رويدا رويدا و تبدو على الساحل الأبنية و القبب المصنوعة من الكاشى بصورة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۵۴

ولاية بغداد أيام زمان

واضحة. و الطيور زرافات زرافات تحط على القبب كيما تجفف بأشعة الشمس الأولى أجنحتها المبللة!! و النخيل تتساوق مع المنائر السامقة و مدارس و أبنية الكمرك على مقربة منا و أمامها جمع غفير من اليهود و الأرمن و العرب بألبستهم الملوّنة، و عن كثب تبدو بساتين مزدهرة بينها بناية القنصلية الانكليزية تظهر بشكل أخاذ .. كل هذه المناظر الخلابة كانت غارقة بين طبقات من الضباب و الأبخرة المتصاعدة من دجلة، يخيّل للرائى أن الساحل الأيمن من نهر دجلة أجمل و أن سكنته الذين يعيشون تحت ظلال النخل الوارفة و الأشجار المخضرة الأخرى هم أسعد و أكثر راحة ممن سواهم و أن حياتهم التى يقضونها فى منازلهم تلك هادئة رضية و أنهم بعد ذلك لا اتصال لهم بالدوائر و المحال التجارية و الخانات من قريب و لا بعيد!! و لكن الواقع خلاف ذلك ..

ما إن ملأ الضياء السماء حتى بدا- واضحا جليّا عن كثب- جسر عائم لم يكن عرضه بمستوى واحد فى جميع جهاته كما لم يكن على استقامة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۵۵

واحدة .. و يظهر عليه كتل من الناس بألبستهم المختلفة و هم فى حالة رواح و مجيء دون أن يلووا على شيء، و كأنهم يذهبون إلى دوائرهم الرسمية أو إلى متاجرهم. كما هناك ثمة عدد كبير من النساء- يظهرن- أيضا بعباءاتهن الحمر أو الزرق أو الخضر. يذهبن و يجئن مع الرجال و هم يرتدون الألبسة البيضاء أو الصفراء كتفا إلى كتف!! و زيادة على كل هؤلاء الناس فثمة حيوانات كقوافل من الجمال و الحمير و الجياد تعبر على هذا الجسر الذى لا سياج و لا دعائم تمسكه!! و خلاصة القول أن ألبسة هؤلاء الرجال و النسوة الزاهية الملونة بألوان مختلفة كانت تشكل منظرا خلابا و كأنى بها قد قبست- ألوانها تلك- من قوس قزح!!

ليس من الممكن أن نقيس بغداد بإسلامبول و دجلة بالبسفور فلا وجه للمقارنة بين ذلك قط!! إننى لم أر على جسور إسلامبول أو (سر عسكرية) أو (الطوبخانة) مثل هذا المنظر الجميل الذى رأيته اليوم على جسر بغداد! .. لم أر مثل ذلك الجمع الغفير بالملابس الزاهية المختلفة و هم فى دأب و نشاط!!

و الواقع لم يكن ذلك الازدحام مقصورا على خيط الجسر الذى يبدو من بعيد بل كان أينما وجهت بصرى أراه .. هنا فى المحل الذى رست فيه سفينتنا و هناك على الضفاف النائية .. و يبدو على هذه الضفاف قوارب كثيرة ربط كل منها بحبل بالأرض الصلبة .. كما أرى فى وسط النهر زوارق أخرى بأشكال و أحجام مختلفة و هى فى حركة دائبة!! وثمة سفن شراعية تحمل الحبوب و البضائع الأخرى و تصنع مثل هذه السفن- فى العادة- من جذوع النخل و تطلى بطبقة كثيفة من القار من الداخل و الخارج ..

إن مثل هذه الوسائط للنقل لا يكلف صنعها مبلغا كبيرا من المال كما أن إصلاحها إذا ما أصابها عطب سهل ميسور و هو أن يتم طليها مرّة أخرى بالقار.

و أرى من مكانى هنا عدّة أشخاص منهمكين فى صنع واسطة كهذه الوسائط

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۵۶

النقلية!! كما أرى قسما منها على وشك الانتهاء، تعالت رؤوسها إلى أعلى وفوق سطحها يذيب العمال القار بواسطة النار و يطلون به جذوع النخل التى صنعت منها السفينة كما نفعل نحن تماما فى تبليط شوارع باريس! .. و تستخدم هذه السفن عادة فى السفرات الطويلة بين بغداد و البصرة و موضعها تحت الجسر القائم قرب ضفة النهر. أمّا على الجانب الآخر من الجسر فتوجد وسائل للنقل أخرى تسمى «الكلك» و هذه تستخدم فى العادة فى أعلى النهر لأنها لا تسير إلّا مع مجرى الماء و بمعاونته.

و يصنع «الكلك» هذا من جمع عدد من القرب بعد نفخ الهواء فيها و ربط كل منها بالآخر بحبال. و توضع فوقها ألواح من الخشب و تغطى هذه بطبقة من الأشواك لكى تحفظ البضائع التى توضع فوقها من البلل!

و يقف على جوانب «الكلك» هذا عماله و بأيديهم قطع طويلة من الأخشاب يجذفون بها الماء ليسير بيسر و سهولة مع مجرى النهر نحو بغداد. و من الممكن أن يحدث ما يمزق بعض هذه القرب فى الطريق و لكن مهارة القائمين عليه و شدّة مراسهم يحول دون توقف «الكلك» عن السير أو الغرق!

و ما إن يصل هؤلاء (بكلكهم) إلى بغداد، حتى يبيعوا تلك الأخشاب و الأشواك و لا يبقون شيئا سوى القرب فإنهم يفرغونها من الهواء و يحملونها معهم على دواب يستأجرونها إلى بلدهم ليعيدوا الكرة منها إلى بغداد!

أسعار الكلك تتناسب عادة مع عدد القرب التى تستخدم فيه، يتفق بعض الأحيان أن تستخدم أكثر من ثمانين قربة و فى هذه الحالة يحمل الكلك المسافرين فضلا عن البضائع و لكن بعد أن يرفع عليه قطعة ثخينة من المشمع ليقيهم من عوارض الجو و من القيظ و القر!!

أما فى الحالات التى لا يحمل فيها الكلك شيئا سوى البضائع التجارية كالخراف و الدجاج و الطيور و الفواكه و قوالب الجبن الكبيرة و البرغل التى يطبخ منها أكلة لذيذة، فلا يستخدم فيه إلّا خمسون قربة كما أنه لا يحتاج إلى قطعة المشمّع!!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۵۷

قفة بغدادية فى نهر دجلة

و تأتى هذه الأكلاك عادة من النواحى البعيدة جدّا التى يكثر فيها الخشب و الغابات لأن ذلك من المواد الأولية فى صنعها و التى لا توجد منها فى بغداد.

هذا ما يستخدم فى السفرات البعيدة بين الأصقاع الواقعة فى الشمال. أمّا ما يستخدم بين العاصمة و ضواحيهما و القرى القريبة فبوسيلة أخرى تسمى «القفة» و هذه تكون على شكل دائرى مقعر و تصنع عادة من سعف و جذع النخل و ذلك بعد أن تطلى بطبقة كثيفة من القار. و القفة يديرها شخصان و يسيرانها بواسطة مجاذيف طويلة يحركانها تارة هنا و أخرى هناك! لذلك هى أقل الوسائط الأخرى سرعة و لكنها آمنها و أكثرها اطمئنانا من التعرّض لأخطار الغرق، و إن شحنت ببضائع ثقيلة و لم يفصل حافتها عن مستوى الماء إلّا خمسة عشر سنتيمترا فقط .. مع ذلك لا تخترقها قطرة واحدة من مياه النهر! و القفة هذه تكاد تختص بحمل أنواع الفواكه المختلفة مثل الرقى و البطيخ فى فصل الصيف إلى بغداد.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۵۸

و لا أدرى أين أضع الزوارق التى ذكرها «هردوت» فى كتابه التاريخى بين وسائل النقل هذه التى ذكرتها فيما سلف؟

خلال أيام سفرتى من البصرة إلى هنا استطعت أن أجد وقتا أقضيه بالمطالعة و أن ألمّ بطرز الملاحة على أيام البابليين فى هذا النهر. و لكم تعجبت من الخطأ الذى وقع فيه بعض الكتاب من عدهم القفص الذى شرحه «هردوت» زورقا اعتياديا لا يختلف عن الزوارق الأخرى.

و إننى أستطيع أن أثبت ادعائى هذا من غير أن احتاج لكثير استدلال أو إزجاء وقت طويل! لأن هردوت نفسه يقول ما نصّه: «يستخدم البابليون فى الهبوط من أعالى نهر دجلة إلى المدينة وسائط نقل دائرية مقعرة تصنع من أغصان و جذوع أشجار الصفصاف التى تكثر فى بلاد الأرمن و أعالى المدن الآشورية على شكل الأقفاص المدورة .. و يغطى عادة سطح هذه الوسائط من الخارج بجلود الحيوانات. و هذه الزوارق تشبه الدروع الدائرية التى تستخدم فى الحروب.

و توضع تحت هذه الزوارق القرب و الجلود و تحمل البضائع التجارية. و جلّ هذه هى دنان الخمر الفخار- الخمر المصنوعة من التمور و يقف فى هذه الزوارق عادة شخصان يسيرانها بمجاذيف فى أيديهما بالتناوب و بحركة دائبة!

و هـذه الزوارق منها أحجام و أنواع مختلفـة و أكبرها يسـتطيع حمل ما يزن خمسـة آلاف تالان و بعـد أن تصل هـذه إلى المدينة يبيع أصـحابها البضـائع المحمولـة كما يبيعون ألواح الخشب و من ثم يعودون إلى أمصارهم على ظهور الـدواب و هم لا يحملون مما كان معهم غير القرب، ذلك لأنهم لا يسـتطيعون أن يعودوا بزوارقهم تلك بعكس اتجاه مجرى النهر السـريع، لـذا نراهم يصـنعون زوارقهم من جلود الحيوانات و بمجرد وصولهم إلى بلادهم- أرمنستان-

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۵۹

قفة متحجرة وجدت على حائط من حيطان نينوى

يعيدون صناعة تلك الزوارق عودا على بدء»! هكذا ذكر هردوت زورقا ليس له مقدمة و لا مؤخرة، و لا يضيف إلّا أنه يشبه القفص أو الدرع الدائرية و أنه مصنوع من أغصان و جذوع شجر الصفصاف و حوافه من هذه الأغصان الطرية ..

يتّضـح مما ذكره هردوت إذن أن القفة التى يذكرها- و لا يسـميها- هى على نمط قفة اليوم و تشـبهها إلى حد بعيد. علاوة على ذلك فإنى اكتشـفت فى الآثار الآشوريـة صورة منحوتـة على حائط من حيطان نينوى تمثّل شـكل القفـة القديمة التى تناظر ما عليها اليوم فى بغـداد، و أراه الآـن أمـامى يخطر كـل منها على سـطح مياه النهر الرائقـة .. و هـذا الأثر المكتشف يرجع تاريخه إلى ثمانمائـة سـنة قبل الميلاد. فهل يبقى- بعد ذلك- شك من أن زوارق هردوت لا تختلف عن الزوارق الاعتيادية كما خيّل إلى الكتاب المؤرخين!

و لكن- مع ذلك- ينبغى ألّا ننكر أن ثمة تباينا بين (قفة) هردوت و (القفة) المسـتعملة اليوم، و ذلك هو أن الأخيرة مطلية من الخارج و الداخل

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۶۰

بطبقة كثيفة من القار، أما التى كانت معروفة على زمن البابليين فكان يعتاض بجلود الحيوانات عن القار. و من ناحية أخرى فإنه يقول- أى هردوت- «إنهم بعـد وصولهم إلى المدينة المقصودة و بيعهم بضائعهم التجارية يعودون إلى أمصارهم و هم يحملون معهم القرب و الجلود فقط على ظهور الحمير»! ..

يحتمـل ممّـا تقـدّم أنه كان يقصـد- بأقواله تلك- الكلك و لكننى أشك فى ذلك لأن الملاحين اليونان قـد ذكروا الكلك و القرب المنفوخـة بالهواء و لكنهم لم يـذكروا شـيئا عن مقـدمتها و مؤخرتها .. و أعتقـد أنه ينبغى أن نأخذ بأقوال هردوت تلك دون زيادة أو نقصان، و أن نعـد زوارق البابليين على شـكل قفة اليوم إلّا أنها كانت من أسـفل محاطة بجلود خيط كل منها بالآخر و أن الصورة التى اكتشفت فى نينوى تؤيّد رأيى هذا و لا تدع مجالا للشك!!

لنعد إلى ما كان من أمر سفرتنا .. فأقول ان المرّة الأولى التى ركبت بها القفة فى دجلة كانت مزعجة .. فما كدنا نقعد فيها حتى راحت تدور بنا على صـفحة مياه النهر بسـرعة حتى خيّل إلىّ أننا على و شك الغرق. و بعد لأى بلغنا ضفة النهر و وضعنا أرجلنا أوّل مرّة على أرض مدينة الست زبيدة و هارون الرشـيد. و من حسن الحظ أن القنصل الفرنسـى فى بغداد كان قد علم بخبر وصول السفينة و أرسل أحد خدمه لاستقبالنا و مساعدتنا!

و القنصل الفرنسـى فى بغداد اليوم هو مسيو پرتيه (Peretie) ابن أحد علماء الآثار المعروفين الذى قام بحفريات كثيرة و اسـتطاع أن يكتشف أشياء مهمة ألقت ضوءا ساطعا على كثير من الحوادث التاريخية القديمة ..

و خلاصـة القول أننا بعـد فترة مديـدة من التغرّب عن وطننا الحبيب اسـتطعنا أن نرى مرّة ثانيـة حياة عائلـة فرنسـية قابلنا أعضاؤها بود و حنان. و لقد وضـعت مدام پرتيه غرفة بناتها تحت تصـرفنا. و كنت أبدو مسرورة جدّا لأننى سأنام هذه الليلة نوما هادئا على سرير مريح نظيف بعـد أن حرمت ذلك منـذ أن خرجنا من طهران حتى اليوم اللهم إلّا فى مدينـة جلفا التى نمنا فى بيت صديقنا «پرپساكال» و إذا أردت أن أقول الحقيقة فمن هناك لم أنم بأمان و اطمئنان، ذلك لأن السـرير الذى وضعه لنا صديقنا پرپساسكال- عفا اللّه عنه- كان خشنا يشبه

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۶۱

إلى حد بعيد (التخت) الذى يستعمله المشعوذون و الدجالون فيما يأتون من خوارق!! و لكن الليلة على أى حال سأنام ملء عينى لا يعكر صفوى شىء ..

و لقد أرشدتنى بنات مدام پرتيه اللطيفات إلى جميع مرافق الدار قبل أن أذهب إلى غرفتنا و أستغرق فى نومى العميق!

عمارة القنصلية الفرنسية صنعت بأيدى العمال البلديين كأى دار من الدور الأخرى لا يميّزها شىء لأنها بنيت لسكنى عائلة منهم و ليس لاتخاذها دارا للقنصلية .. و لغرفها مشارف ذات شبابيك صنعت من الزجاج الموزاييك على أحجام مختلفة كل قسم منها مؤطر بإطار من خشب صغير .. و لها ستائر كبيرة بيض و حمر تستخدم فى منع أشعة الشمس من الدخول إلى الغرفة فى وقت الظهيرة التى يشتد بها قيظ الجو!

و لقد اضطر أهالى بغداد إلى إنشاء مساكنهم بشكل خاص يستطيعون به أن يقوا أنفسهم من تقلبات المناخ بين الصيف الذى تشتد فيه الحرارة بدرجة لا- تطاق و الشتاء الذى يبرد فيه الجو حتى لتحس أن أعضاءك على وشك التجمد!! ففيها على هذا الأساس أربعة أقسام لكل فصل قسم خاص به ينتقلون إليه عند ما يحل.

ففى أسفل المنازل تحت الأرض حجر واسعة مسقفة يصل عمقها إلى ثلاثة أمتار أو أربعة تسمى بالسراديب! و هذه الحجر العجيبة تستخدم فى فصل الصيف و ينتقل إليها جميع أثاث المنزل لأنها لو تركت فى الطبقات العليا من المنزل فإن الأرضة لم تدع شيئا منها و تحيلها إلى تراب ..

و هذه السراديب تحوى منافذ للهواء طويلة تعمل على تلطيف الجو.

و يقضى أهالى بغداد عادة وقت الظهيرة فيها و عندما يحين العصر يخرجون منها و أنفاسهم ضائقة إلى سطوح المنازل لاستنشاق الهواء الذى لا يقل عمّا كان فى تلك الحجر .. ذلك لأن الجو لا يتلطف و لا يتغير فى بغداد على رغم جنوح الشمس إلى الغروب و اختفائها وراء الأفق- أى على عكس ما هو فى إيران.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۶۲

و تبدو المدينة فى النهار و خصوصا وقت الظهيرة و كأنها خالية من السكان و لكن وقت الغروب تدب فيها الحركة. و النساء يذهبن لزيارة بعضهن بعضا من سطوح منازلهن و يقضين الليل بالقيل و القال و تدخين النرجيلة و باحتساء كؤوس الشراب المثلج. و لوجود حشرات مؤذية تكثر على الضوء يضطرون إلى إطفاء المصابيح و الجلوس فى ظلام دامس. و ما يكاد نور الفجر يظهر فى السماء حتى يدخل الجميع إلى السرداب عودا على بدء و يمضون سحابة النهار و هم فى حالة تراخ و كسل حتى الأشخاص القويو البنية منهم لا ينجون من مثل هذه الحالات!

و عند ما يحل فصل الشتاء ينتقل الأهلون إلى الطبقة الأولى من منازلهم و مع أن مدافئهم مملوءة بالنار على الدوام فهم يرتجفون بردا. و بقدر ما كان يلقون من قر القيظ فى الصيف فهم يلقون الأمرين من قر الشتاء!

و النساء أكثر من يلقى الأذى و النصب لما يؤمن الأهلون بعادات و تقاليد غريبة إذ يحظر عليهن أن يخرجن إلى الأزقة و إن ارتدين ملابس فضفاضة تغطى أجسامهن من قمة الرأس إلى أخمص القدم. و الأزقة هذه- أبعدك اللّه عنها- ضيقة معتمة قلّما يصل إليها الهواء و هى فى وقت الشتاء تنقلب إلى برك و مستنقعات مملوءة بماء الأمطار المتعفن و أوساخ هذه المياه تبقى فى آبار غير عميقة هناك بعد أن تنزاح المياه و تتبخر بفعل أشعة الشمس المحرقة. و فى حالة المطر الغزير تمتلئ هذه الآبار و تفيض إلى المجارى المتصلة بها و تملأ أرض الأزقة بالماء و القاذورات بحيث لا يستطيع الرجال أن يسيروا خلالها إلّا بمعونة ضوء فوانيس يحملونها بأيديهم. على هذا الأساس فلا عجب إذا ظهر وباء الطاعون فى مثل هذه المدينة و أتى على أهليها و جعلهم حصيدا و أثرا بعد عين! إلّا أن الطبيعة- فى فصل الخريف وحده- تسالم أهالى بغداد المساكين و تهدأ فى حربها لهم بعد أن تذيقهم العذاب و الألم فى ثلاثة

أرباع السنة. ففى هذا

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۶۳

الفصل يروق الجو فلا مطر غزيرا و لا برد قارسا و لا حر جهنميّا لا يطاق.

لـذلك نرى العوائل المترفـة و الأوروبيين يسـتفيدون من رقـة الجو هذه فيخرجون إلى البادية و يضـربون بخيم فى خرائب طيسـفون و سلوقية و يتلهون بصـيد الظباء و الطيور فإنها تكثر فى تلك المناطق. و من الطبيعى أن الخروج للصيد ليس أمرا سهلا مأمون العواقب و لا سـيما إذا كان بواسـطة رماح يهجمون بها على الحيوانات الخطرة هذه، و الأرض كثيرة اللخاقيق التى أحدثتها الجرذان البرية. و هذه الأخطار تهدد الأوروبيين من هؤلاء أكثر ممن سواهم و ذلك لأنهم لم يتمرّسوا على مثل هذه الأحوال.

و يحظر على النساء أن يشاركن فى صيد الحيوانات الخطرة مع الرجال بيد أنه يسمح لهن أن يصيدن من الطيور التى تكثر على ضفاف نهر دجلة فى خلوات بعيدة عن الأنظار ..

الآن- و بعد كل ما تقدم- نسـتطيع أن نقدر عذاب و آلام الموظفين المساكين الذين حكم عليهم بأن يسكنوا فى مثل هذه المملكة. و هؤلاء المساكين قـد اعتادوا هـذه الحياة القاسـية اليوم و لكنهم صـدموا بواقع بغداد صدمة عنيفة بعد ما كان من قرائتهم عنها فى كتاب ألف ليلة و ليلة!!

۱۵- ديسمبر:

مع أنى كنت أتعجّل حلول الليل لكى أخلو إلى مخدعنا و أنام ملء عينى .. فلا أدرى ما الذى حدث عندما أخفيت نفسى بين الأغطية الـبيض النظيفـة و تمـدّدت على السـرير المريـح للنـوم .. إذ كلمـا حـاولت أن أغمض عينى ذهبت محـاولتى عبثـا دون جـدوى. حـتى أحسست أنى أكاد أختنق ..

و لعلّ مردّ ذلك أن جسمى الذى تمرّس على المصاعب و المشاق لم يعد يحتمل نعومة هذا الفراش و لين هذه الأغطية!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۶۴

و الخلاصـة أن هذه الليلة مضت بعذاب و ألم على خلاف ما كنت أقدّر و أنتظر و لو لا خجلى من الخدم لكنت أذهب فى ذلك الليل إلى صـحن الدار و أفتش عن لحافى القذر بين أمتعة السـفر و أنام على البلاط حتى لا أكون قد غيّرت ما اعتادته أضـلاعى من خشونة الأرض و قساوتها و قذارتها!!

إننى أطمـأن إلى رفيقى القـديم هـذا و أودّه- و أعنى لحـافى الخـاص- لدرجـة إذا وصـلت إلى باريس فإننى أفضـله على جميع أثاث منزلنا- على قذارته و اهترائه-!

و فذلكة القول أنه ما كادت تعلو أشـعة الشـمس الأولى إلى كبد السـماء حتى تركت السـرير و خرجت إلى صحن الدار، و بمجرد أن رآنى موظفو القنصلية ذهبوا إلى غرفهم الخاصة و ارتدوا ملابسهم الرسمية لكى يكونوا على استعداد لتنفيذ أو امرى و إرشادى إلى ما أريـد. إننى كنت أرغب فى أن أرى أزقـة و دروب هـذه المدينـة بأسـرع ما يمكن و أن أبحث عن آثار الست زبيدة، أما المؤسف أن هذه الآثار بنتيجة الحروب التى وقعت بين الفرس و العثمانيين و محاصرة بغداد قد درست و انمحت عن الوجود.

لا يتفق المؤرخون الغربيون و الشرقيون على معنى اسم هذه المدينة.

فالمؤرخون الأولون يعتقـدون أنه يعنى: «هديـة اللّه أو انعام باك» و باك هـذا اسم صـنم قـديم كان يقدّسه الكلدانيون. أمّا فى اعتقاد العرب فإنه محرّف من كلمـة «باغ» التى هى البسـتان فى الفارسـية و «داد» الذى هو اسم أحد الزاهدين النسّاك و العلماء و كان يملك بسـتانا فى هـذا المحل بعينه لـذلك سـميت هـذه المنطقـة باسم «باغ داد» أى بسـتان داد و يقال: باغ داد أى بسـتان العدالة نسـبة اليه و سميت هذه المدينة به أيضا عند تأسيسها.

و على أى حال كان اكتشاف بناء آجرّىّ فى هذا المكان و نقش اسم بختنصر على آجرة من آجره يثبت بحيث لا يقبل الشك و التردد أنه كانت فى هذا الموضع مدينة قديمة على الضفة اليسرى من نهر دجلة. و لعل هذه

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۶۵

المدينة كانت مندرسة عندما جاء الخليفة العباسى الثانى أبو جعفر عبد اللّه المنصور فى سنة ۱۴۵ الهجرية إلى هنا فأسس عاصمة ملكه بغداد!

و مهما يكن، فإن الخليفة المنصور بعد أن عاين هذه المنطقة و درس أحوالها وقعت من نفسه و أسس فيها مدينة مدورة سماها دار السلام!

باب بغداد

و ينقل المؤرخون أنه فى الوقت الذى كان المنصور يؤسس مدينة على الضفة اليسرى من دجلة كانت على الضفة الأخرى دور عديدة و بساتين مزدهرة أى أنها كانت منطقة مأهولة بالسكان. و فيما أسسه الخليفة العباسى: جسرين عائمين يربطان الضفتين إحداهما بالأخرى و على أثر هذا أخذت بغداد تتوسّع و أصبحت إحدى المدن المهمة فى العالم يومئذ. و فى الوقت الذى كانت أوروبا غارقة فى ليالى الجهل و الوحشية كانت بغداد هذه موطن العلم و المعرفة و مركز الإشعاع فى الدنيا كلها.

يذكر مؤرخو العرب القدامى عن بغداد أخبارا تبعث على الدهشة و العجب و مما يذكرونه أن عدد حماماتها و قصورها الشامخة و مدارسها كان لا

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۶۶

يقع تحت حصر وعد و أن تعداد نفوسها كان كبيرا بحيث إنه سار خلف جنازة الإمام ابن حنبل عند وفاته و هو أحد رؤوس المذاهب الدينية الأربعة مليون نسمة، و ان اضطر ثلاثة من الخلفاء أن ينقلوا عاصمة ملكهم إلى مدينة أخرى تسمى «سامراء» تبتعد عن بغداد بحدود (۶۰) كيلومترا بسبب الازدحام الذى كان يتضاعف فيه و يضيق الجميع بما كان يحدث من هرج و مرج.

و لكن .. أخيرا عندما حدثت الحروب الداخلية و هدمت مدينة سلوقية (كذا) ضعفت الحكومة المركزية و وهنت سلطة الخلفاء حتى إذا كانت سنة (۹۴۹) م (الصحيح ۹۴۵ م ۳۳۴ ه) حاصر سلاطين آل بوبه بغداد. كما أن السلاطين السلجوقيين حاصروها و دخلوها ظافرين بعدئذ إلّا أن بغداد لم تلاق من المصاعب و لم تمتحن بنوب كما حدث فى سنة ۱۲۵۷ م لها. إذ فى هذا التاريخ دخل هولاكو حفيد چنكيز خان المغولى عاصمة المسلمين و أباح جنده السلب و النهب، و قتل فى هذه الأثناء الخليفة مع ثمانية آلاف شخص (كذا) من سكنة هذه المدينة التاريخية المجيدة. و فى سنة ۱۳۹۲ م (۷۹۵ ه) استهدفت بغداد لحملة عسكرية أخرى قام بها تيمور لنك و فى هذه الحملة هدمت جميع آثار العباسيين ، و أقيم مكانها هرم من جماجم و جثث قتلى المدينة الذين كانوا ألوفا و مئات ألوف. و بعد وفاة هذا الفاتح الذى كان سنة ۱۴۰۶ تململت بغداد تنفض عنها غبار السنين و بدأت بترميم حيطانها المهدمة و إنشاء مرافق جديدة لها. و لكن هذا العهد السعيد- نسبيّا- لم يطل كثيرا حتى كان أن تدخلت فى أمورها أسر قراقوئينلو و آق قوئينلو و أخذت تصرفها كما تبتغى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۶۷

و تشاء اهواؤها و مصالحها ثم كان أن دخلها الشاه إسماعيل الصفوى لإخراج المغول منها. و عقب ذلك سلسلة من الحروب المستعرة وقعت بين الفرس و العثمانيين حول الاستيلاء على بغداد و كان احتلالها يتم بالتناوب بينهما، و أخيرا تمّ الأمر فيها للعثمانيين و أصبحت ولاية من ولايات امبراطورية الرجل المريض بغير زيادة أو نقصان! و أخذ الباشات فى حكمها حتى كان أن شق أحدهم عصا الطاعة على الحكومة المركزية و سلّم المدينة إلى شاه عباس الكبير سنة ۱۶۲۴ م (الصواب ۱۶۲۲ م ۱۰۳۲ ه).

و عند ما بلغ نبأ تسليم ثانى مدينة عثمانية أى بغداد القسطنطينية ثار هرج و مرج شديدان بين الناس و اضطرت الدولة من أجل تهدئة

الرأى العام أن تجيش الجيوش و ترسلها إلى بلاد ما بين النهرين و لكن هذه الحملات العسكرية لم تأت بنتيجة تذكر حتى صرفت النظر عن استرداد بغداد.

و لكن بعد مضى عدّة سنين قامت الدولة العثمانية بإعادة بلاد ما بين النهرين إلى ممتلكاتها عودا على بدء و ذلك بتحريك أحد الدراويش. و تذكر السنة ذلك بقولها إنه فى أحد أيام الجمع دخل درويش كان قد أقبل حديثا من العراق، إلى المسجد الذى يصلى فيه السلطان مراد و طلب مقابلة السلطان.

و ما إن أدخل عليه حتى صاح فى وجهه و هو يرتجف لشدّة تأثره: «أى خليفة (النبى) غير اللائق، إنك تخفى نفسك بين حراسك و بين حريمك و تشغل نفسك بالأنس و الطرب و الناس الأشرار يتزايدون فى ملكك الموروث و يضغطون على المؤمنين الصالحين من أهل ملتك .. أو علمت أن الشيعة قد هدموا قبر الشيخ عبد القادر»! و يضيف هؤلاء إلى قولهم إن السلطان تأثر كثيرا بأقوال هذا الدرويش و أقسم بأغلظ الأيمان فى تلك اللحظة ليستعيدن بغداد من أيدى الفرس و ينشئ مجدّدا قبرا لهذا الرجل المقدّس يليق بمقامه. و بالفعل قام بما أقسم فى السنة التالية، فجهز جيشا كبيرا و سار به إلى بغداد حتى وصل إلى حدودها بعد تسعة عشر يوما و حاصرها. و كان أول ما قام به بعد ذلك هو أن

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۶۸

ضريح الشيخ عبد القادر الكيلانى

استولى على مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلانى، و فى اليوم الثانى وجّه إلى سكنة بغداد إنذارا بتخلية منازلهم إلى ما قبل الظهر .. إلّا أن الأهالى لم يهتموا بهذا الإنذار. و عندما حل الموعد المنتظر أمر السلطان مراد جنوده أن يهجموا على دار السلام و يتصرّفوا بكل ما فيها كما يشاؤون. و يقال إنه قتل فى هذه الحرب من أبناء الشيعة ثلاثة آلاف نسمة.

و بعد حرب مستعرة بين الجانبين عقدت معاهدة صلح بين الدولة العثمانية و إيران و تنازلت الأخيرة بموجبها عن مدينة بغداد إلى الترك مقابل ان تضم إلى أراضيها ولاية (إيروان).

هذا ما يذكره المؤرخون عن السلطان مراد و احتلاله لبلاد ما بين النهرين ..

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۶۹

قلعة الطلسم فى بغداد

و لقد وجدت فوق إحدى بوابات مدينة بغداد نقشا يؤرخ فتح السلطان مراد لبغداد مع جيوشه العثمانية .. و جاء فى هذه الكتابة ما معناه:

«دخل السلطان مراد فى ۲۴ ديسمبر سنة (۱۶۳۸) بغداد ظافرا بعد أن حاصرها مدة أربعين يوما و كان دخوله من هذا الباب».

و أغلقت هذه الباب بعد دخول السلطان، و هى تتكأ على برج مرتفع صنع من الآجر و فوق السافات الأولى منها تاريخ إنشاء هذا الحصن الدفاعى و لقد جاء ذلك بعد ذكر آية من القرآن الكريم هى:

وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ و جاء فى تسجيل تاريخها ما معناه: «هذا البناء أقيم بحسب أوامر اللّه

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۷۰

سبحانه و تعالى و أمر زعيمنا و كبيرنا الإمام أبى العباس أحمد الناصر لدين اللّه أمير المؤمنين الذى يجب على العالمين أن يقدموا له بفروض الطاعة و الإخلاص جميعا .. أى أنه أنشئ بفضل الخاضع للّه أبى العباس الذى خلقه زينة للعالم و جعله دليل وجوده .. استمطروا شآبيب الرحمة على روح آبائه و أجداده الطاهرين و الفخر و العزّة له و ادعوا أن يبقى ملاذ المؤمنين و حامى المستضعفين، أقيم هذا البرج سنة ۶۲۸ (۱۲۳۰ م) و انتهى العمل به ..

اللهم صلّ على نبينا و رسولنا محمد و آله الطيبين الطاهرين».

و الذى يلفت النظر هنا هو وجه الشبه بين الاستحكامات الدفاعية التى استعملها المسلمون فى القرون الوسطى و الاستحكامات التى أقامها الفرنسيون فى ذلك العهد، فليس فى استطاعتك قط أن تجد اختلافا بين طرز بناء هذا البرج الكبير و برج كويى الفرنسى مثلا .. فلقد أنشئ البرجان بآجر كبيرة يخيّل إلىّ أنها من نوع واحد و كذلك الأبواب و أسلوب البناء و الحيطان الحجرية و حتى الخندق و السقوف المحكمة للغرف الهلالية الشكل و الثقوب التى تستخدم للرقابة و إصابة الهدف، كلها متشابهة و متناظرة كأنها صنعت بأيد واحدة فى البرجين على بعد المسافة بينهما.

و إذا كان هناك بعض الاختلاف اليسير من حيث الأقواس فإننى على رغم ذلك كان يخيّل إلىّ و أنا واقفة بجانب هذا البرج الإسلامى أننى قبالة استحكامات فرنسية لا غير ..

و من الإنصاف أن أذكر اختلافا آخر بين مراكز الدفاع الإسلامية و النصرانية هو أن الأولى ما زالت تحتفظ بعد ثمانمائة سنة من إنشائها بشكلها العام دون أن تكون مصابة بتصدّع كبير أو انهدام على خلاف الاستحكامات

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۷۱

الفرنسية التى تبدو مهشمة متهدمة على رغم إنشائها بعد الاستحكامات الإسلامية بزمن قد يطول أو يقصر و على رغم الترميمات التى تجرى عليها بين فترة و أخرى، حتى لتبدو للناظر أنها منشأة فى أزمان هى غاية فى البعد على حين تبدو اخواتها الإسلامية كأنها انشئت منذ أيام معدودات. و فى اعتقادى أن مردّ ذلك إلى المناخ الذى ساعد على أن تحافظ الاستحكامات الإسلامية على رونقها و شبابها بينما عمل مناخ فرنسا الممطر القاسى على تصدّع استحكاماتها بسرعة .. و ليس من البعيد أن يكون ثمّة سبب آخر و هو وجود خصائص فى فن العمارة الإسلامية ساعدت على ذلك.

توجد بين هذه الاستحكامات- فى الداخل و الخارج- مقابر واسعة كبيرة تسمّى بمقابر الشيخ عمر، و لهذه قبة مخروطية الشكل مزينة ببعض المقرنصات الجميلة من الخارج التى تترك آثارا جميلة أخرى فى الداخل.

و عند ما تيمم وجهك شطر المدينة تدخل إليها من زقاق ضيّق يبدو إليك للوهلة الأولى أنه هادئ، ينتهى إلى مقبرة الشيخ عبد القادر التى اندلعت من أجلها نار الحرب و قصدها السلطان مراد من اسطنبول ليقوم بتعميرها. قبة هذه المقبرة مسطحة و لها منافذ كثيرة، و بجانب هذه توجد قبة أخرى جميلة الشكل مصنوعة من الكاشى الملوّن و لكنها أصغر من تلك، و يغلب على الظن أنها منشأة على الأسلوب الإيرانى الذى كان معروفا فى أيام الصفويين و تحت هذه القبة يوجد فناء الضريح ..

و للمقبرة صحن كبير واسع الأرجاء تحيط به من الجوانب حجر يشغلها المسافرون و الفقراء و الدراويش بالمجان. و على بعد قليل توجد مدرسة لتعليم الكتابة و القراءة و أصول الدين و الفقه. هذه الأبنية الأخيرة و منارتان مرتفعتان قد ضمتا إلى المقبرة فى زمن قريب ..

و على مقربة من المقبرة رأيت أبنية و منائر أخرى كمسجد و مقبرة الشيخ

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۷۲

مقبرة الشيخ عمر فى بغداد

يوسف و عبد الرحمن و غيرهما تلك الأماكن التى أصرف النظر عن ذكرها و شرحها، ذلك لكثرة عددها الذى يقارب عدد الكنائس الرومية عندنا.

۱۶- ديسمبر:

كنت أرغب كثيرا فى أن أزور جميع المساجد و المقابر و أطلع على عادات و قواعد الطائفة السنية، و لكن حال دون ذلك عدم

معرفتی اللغة العربیة و أن مترجمی کان من طائفة الشیعة ..

و کل ما استطعت أن أعرفه هو أن الدین الإسلامی مرّ فی بدء تکوینه بفترة مضطربة کالأدیان و المذاهب الأخری و أنه اختلف فی تفسیر الکثیر من مواده، و هو الأمر الذی حمل المسلمین علی الانشقاق فیما بینهم و انقسامهم إلی طوائف و شیع. و هناک الیوم أربع مدارس أو قل مذاهب کل منها یفسّر القرآن تفسیرا یختلف عن الآخر و لکنهم جمیعا یتفقون علی أن القرآن کلام اللّه المجید وضعه بلغة عربیة فصیحة یعین فیه قوانینه لبنی البشر لأجل رفاههم و سعادتهم.

رحلة مدام دیولافوا من المحمرة إلی البصرة و بغداد/ تعریب علی بصری، ص: ۷۳

أول هؤلاء المفسرین هو أبو حنیفة الذی ولد سنة (۷۰۰) میلادیة فی إیران و انتقل بعدها إلی بغداد و أقام فیها، و مؤیدوه فی الأغلب هم من سکنة بلوجستان و أفغانستان و الترک.

و ثانیهم مالک و قد ولد فی المدینة المنوّرة سنة (۷۹۵) میلادیة و أتباعه هم من الإفریقیین.

و ثالثهم الشافعی و ینتهی نسبه إلی قریش قبیلة النبی العربی ولد سنة (۸۲۰ م) فی المدینة أیضا و کان یعیش فیها.

مرقد الکاظمین

و الرابع کان ابن حنبل ولد سنة (۸۵۵ م) و کان إمام بغداد و یتبعه کثیر من الأعراب.

یتفق زعماء هذه الفرق الأربع فیما بینهم علی أغلب المسائل الدینیة و لکنهم یختلفون فی تفسیر آیات من القرآن المقدس، و لکن أتباع هذه الفرق لکل منهم خصائص نفسیة و روحیة مختلفة بحیث یستطیع المرء أن یضع یده علیها بسرعة .. فالحنبلیون الذین کانوا آخر من دخل الإسلام متعصبون کثیرا لمبادئ الدین و متحمسون أکثر ممن سواهم و أنهم لهذا السبب ثاروا عدّة مرات فی زمن الخلفاء العباسیین، و قاموا باضطرابات فی بغداد، فقد کانوا یدخلون المنازل مع زعمائهم و یحطمون زجاجات الخمر و آلات الموسیقی

رحلة مدام دیولافوا من المحمرة إلی البصرة و بغداد/ تعریب علی بصری، ص: ۷۴

المیدان الکبیر فی بغداد

و ینهالون علی الجواری و المغنین بالضرب المبرح! حتی أنهم کانوا یناصبون أبناء فرقتهم العداء إذا ما تهاون أحدهم فی حماسته الدینیة و لم یبد من الشجاعة و الاستبسال فی محاربة المروق من الدین و الفساد!

أمّا الحنفیون فکانوا علی عکس هؤلاء إذ یتمیزون بروح متحرّرة.

و المالکیون و الشافعیون کانت عقائدهم معتدلة أیضا.

و لقد تطوّر النزاع بین الطائفة السنیة تطورا خطیرا، فکان ان انتهی بحرکات مسلحة تحطم زند ابن حنبل فی إحداها. و لکن الیوم یعیش جمیع أفراد الطائفة بصفاء و هدوء دون أن تشتجر منازعات مخیفة کالسابق بین فرقهم.

بید أنه ثمة فرق جدیدة ظهرت فی الأیام الأخیرة تختلف عن الفرق السابقة حول قسم من المسائل المذهبیة و الآراء و العقائد و أشهر هذه الفرق الوهابیة و زعیمها محمد بن عبد الوهاب، و بدأ هذا نشاطه المذهبی سنة ۱۷۴۰ م

رحلة مدام دیولافوا من المحمرة إلی البصرة و بغداد/ تعریب علی بصری، ص: ۷۵

جامع المیدان (الجامع الأحمدی)

بوعظ و إلقاء خطب علی سکان بلاده «نجد» و بعد فترة قصیرة استطاع أن یجمع حوله عددا کبیرا من الأتباع و الأصفیاء الذین یتمیّزون بالشجاعة. و لقد استطاع هؤلاء أن یخضعوا بلاد نجد کلها لهم.

ما زال عدد الوهابیین فی- کلدة- العراق و ما جاورها کبیرا و لکن الدولة العثمانیة کانت تراقبهم و ترقبهم بحذر و تحصی علیهم أنفاسهم.

و لقد ابتهج الإيرانيون أيضا بنصر الجيوش العثمانية على الوهابيين

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۷۶

و تقليم أظفارهم، ذلك لأن الكثيرين من رعاياهم يعيشون فى العتبات المقدسة العراقية كالنجف و كربلاء التى دفن فيها أبناء النبى (صلى اللّه عليه و سلم) و خلفاؤه الحقيقيون .

و إذا كانت أحياء بغداد الواقعة على الضفة اليسرى من النهر يربطها طريق مستقيم مع إيران فإن الإيرانيين يفضلون السكنى على الضفة الأخرى فى مدينة صغيرة تقع على بعد ست كيلومترات من بغداد تسمّى بالكاظمين، و علّة ذلك هى أن فى هذه المدينة الصغيرة مقبرة الإمام موسى الكاظم الذى يقدّسه أبناء الشيعة و منهم سكنة فارس.

تمرّ قوافل الزوار الإيرانيين فى طريقها إلى الكاظمين بمدينة بغداد التى تعد من مراكز الطائفة السنية. و عند مرورها بهذه المدينة يلاحقها الأطفال من الطائفة المذكورة و يؤذونهم و يسمعونهم الأقوال البذيئة.

و من السهولة أن يلاحظ المرء سوء تصرف أبناء الطائفة السنية للشيعة.

إذ عند ما تدخل القافلة التى تحمل الزوار الإيرانيين بغداد من بابها الشرقى يحيط بها الأطفال السائبون و يأخذون فى إسماع أفراد تلك القافلة قارص الكلم و جارحه فى وسط زوبعة من الهرج و المرج .. و لم يكتفوا بذلك بل يهجمون على بضائعهم المحملة على الحيوانات التى معهم و كثيرا ما يسرقون أغطيتهم أو نرجيلتهم أو أوانى السمن المعلقة على جوانب تلك الدواب ثم يطلقون سيقانهم للريح يسابقونها إلى منعطفات الأسواق أو المعسكر الذى يقع فى جانب من جوانب ميدان كبير فى هذه المدينة.

لذلك يتحاشى هؤلاء الزوار المساكين من تعليق أمثال تلك البضائع على جوانب دوابهم فى أغلب الأحيان. بيد أن أولئك الصبية الأشرار عند ما يرون ذلك و تأهب رجال القافلة من الدفاع عن أنفسهم و أثاثهم، يأخذون فى اتباع طريقة أخرى فى أذاهم و هى أن يحملوا بأيديهم أكوام الطوب و الحجارة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۷۷

و يأخذون فى رميهم عن كثب ثم يفرون و يتوارون عن الأوجه. و كثيرا ما يحدث أن تسقط تلك الحجارة بين أطراف الدواب و يسبب ذلك سقوط ما تحمل من بضائع، و عندما ينهمك رجال القافلة فى تدارك ما حدث يأخذ الأطفال فى السخرية منهم و ضجيج قهقهتهم يشق عنان السماء!

و على هؤلاء الزوار الإيرانيين طبعا تحمّل كل تلك المصاعب و المشاق و مقابلتها بصبر و أناة، و ألا يفكروا فى يوم من الأيام بتقديم شكوى إلى السلطات التركية أو إقامة دعوى فى المحاكم ذلك لأنهم لا يصلون إلى نتيجة تذكر إذا ما قاموا بمثل ذلك فالمسؤولون الترك- فى الواقع- يشجعون تلك الحوادث، أو تحدث بوحى منهم، و إن كل شكوى من هذا القبيل تقابل بسخرية و استهزاء!!

❊❊❊ ۱۷- ديسمبر:

اليوم عيد و لقد استيقظنا فى الصباح على رنين جرس الكنيسة و ذهبنا مع موظفى القنصلية الكاثوليك لأداء فريضة الصلاة فى كنيسة كبيرة تبدو نظيفة بعض الشىء، و تدير أمورها هيئة مذهبية فرنسية قدمت إلى هذه البلاد منذ سنين عديدة. و لقد أنشأت هذه الهيئة مدرسة كبيرة تلامذتها كلهم من أبناء مدينة بغداد، و هم يدينون بأديان و مذاهب مختلفة و لكنهم جميعا يجلون أساتذتهم و القائمين على تربيتهم و تثقيفهم. و منهاج هذه المدرسة مقتصرة على الدراسة الابتدائية و لقد وجدت التلامذة يبدون شوقا و رغبة فى تعليم اللغة الفرنسية و النطق بها و كم أحس بسرور طاغ عندما أسمع فى الأزقة و الأسواق الكلمات الفرنسية بدل الإنكليزية.

و لهذه الهيئة مدرسة أخرى فى البصرة. و تؤدى هاتان المدرستان نتائج بعيدة فى تثبيت نفوذ فرنسا فى الشرق و توسيعه، و إننى لمست آثار ذلك خلال سفرتى هنا و هناك بحيث أثلج صدرى!!

و يستعين الرهبان على أداء رسالتهم هذه بالراهبات اللاتى يقمن على تدريس و تعليم البنات التركيات .. و هذا التعليم فى العادة يكون أقل مما يلقن

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۷۸

به الـذكور و أكثره ينصب فى معرفة أمور الخياطة و الكىّ و التطريز و ما شابه تلك الأشـياء التى تعد ضـرورية أكثر مما سواها للإناث فى هذه البلاد، إذ لا يسمح لهن أن يعشن على عملهن فى الخارج كما هو الحال عندنا فى أوروبا.

و لقـد وجـدت هـذه الهيئـة الخيريـة و أمثالها فى هـذه البلاد تشـكو قلة مواردها الماليـة و أن أبنيتها غير لائقة بها. و فى فصـلى الربيع و الصـيف عنـدما يلطف الجو يتلقى قسم من الأطفال دروسـهم فى فناء تلك المـدارس على أيـدى معلميهم، أما فى فصل الشـتاء الـذى يكثر فيه هطول الأمطار فيتعـذر قيام تدريسـهم فى الأفنيـة المكشوفة لذلك تضـطر إدارة المدرسة- لضـيق البناية- إلى الاعتذار و عدم تدريس قسم من الطلبة الداخليين و إرسالهم إلى منازلهم.

و لكم يؤسف حقا أن تصرف مبالغ كبيرة إلى أمور هى موضع شك و تردد فى نتائجها المنتظرة، فى حين أن هذه المؤسسات الخيرية تشكو العوز و قلة المال مما يؤدى إلى عدم أداء رسالتها السامية على الوجه الأكمل!!

و لقـد أبـدى الرهبان و الراهبات عجبهن و إعجابهن بـذكاء و نبوغ أطفال هذه البلاد، و لكنهن أبدين أسـفهن البالغ لعدم اسـتطاعتهن تخليصهم من آثار تربيتهم البيتية الأولى السيئة ..

و تقوم الراهبـات فى هـذا الشـأن بوظـائف صـعبة و مهمـة جـدّا .. إذ يجب عليهن أن يتحملن بصبر بـالغ أخلاق و سـيرة جرذان النخل الخشـنة هذه، و أعنى البنات البغداديات اللاتى لا يسـتطيع فوج بكامله من الجيش أن يخضعهن لأوامره. و تقوم هذه البنات الصغيرات بألعاب عجيبة غريبة و يقمن بتمثيل أدوار الحياة حلوها و مرّها فيما بينهن، و يجدن بذلك لذة أى لذة. و لقد حدثتنى إحدى الأخوات الراهبات انه فى الأسـبوع الماضـى عندما كانت إحدى زميلاتها تقوم بدور الحارسة على الطالبات الصغيرات اللاتى لا يتجاوز كبراهن السابعة من عمرها رأت فى ساعة الاستراحة عند عودتها من حجرة الاسـتقبال ما أدهشها و أخذ بعجبها، و ذلك أنها شاهدت الطالبات جميعا قـد اجتمعن حول طفلـة صـغيرة منهن نصف عاريـة تئن و تتوجع و تصـرخ كالطاووس و زميلاتها من حولها فى غايـة الشـفقة و الحرارة يمثلون دور التمريض و مساعدتها!!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۷۹

و قالت الأخت لهن: «ماذا تعملن يا طفلات؟ ما هذا؟ ما هذه الأعمال القبيحة؟ لماذا عريتن زميلتكن الصغيرة هكذا؟ أجابتها على الفور إحدى الطالبات الصغيرات التى يظهر أنها كانت تقوم بدور القابلة فى هذه التمثيلية الطريفة بقولها: «أيتها الأخت الحبيبة لقد انتهى كل شىء انها تعـذبت و تألمت كثيرا، و لكن للّه الحمد قد انتهت الشدّة و أنجبت هذا الطفل الجميل الذى أقدمه إليك» و هنا قدمت إليها لعبة صغيرة من الفرفورى مزينة بزينات طريفة ..

هـذه هى عادات و سيرة هاته البنات الفطريـة. فكيف يمكن بهذه الحالة من تعليم مثل هذه القابلة التى فى السابعة من عمها البسـتنة أو أى عمل آخر.

و الواقع أننى كلمـا أردت أن أصف ما تتحمله تلك الأخوات و ما يقمن به من جزيل الخـدمات هو قليل و ناقص. إنهن دائما يواجهن مثل تلك العادات التى تدل على جدب أخلاقى و يقمن على محاربته بكل ما أوتين من قوة و بأس و صبر.

و هـذه الأخوات المسـكينات يقدمن عادة من بيروت إلى بغداد، فى طريق يقطعنه بأربعة و عشـرين يوما على ظهور الجياد و يضـطررن أن ينمن فى الطريق بخانات قذرة متهدمة دون أن يبدين تأففا أو انزعاجا.

فى مؤسسة بغداد الخيرية هذه خمس راهبات و قد جئن من بيروت.

اثنتـان منهن مـا زالتـا فى المستشـفى منـذ قـدومهما و ذلـك لما أصـيبتا به من مرض فى أثناء سـلوك الطريق الوعر حتى أشـرفن على

الموت، و لقد علمت أن أمل شفائهن جد قليل، لعدم ملائمة طبيعة مناخ هذه البلاد لهن. أما الثلاث الأخريات اللاتى فى صحة جيدة فيقمن الآن على تربية و تعليم خمسمائة فتاة صغيرة و لقد أنبأننى بأنهن يفكرن فى إنشاء مستشفى مجانى للفقراء.

و بعد أداء مراسم يوم الأحد المعتادة يأخذ الرجال النصارى و هم بألبستهم الفاخرة مع نسائهم اللاتى يتأنقن بحسب مبادئ آخر الموضات الحديثة فى التزاور فيزور بعضهم بعضا، و من الطبيعى أن القنصل الفرنسى شخصية محترمة فى البلد و أن الكثيرين سيأتون لزيارته اليوم الذى هو عيد كما أسلفت من القول.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۸۰

و بمجرّد أن رجعنا من الكنيسة إلى الدار بدأت حركة الزيارة، فالرجال كانوا يذهبون إلى الصالون الرسمى الخاص بالقنصل و النساء إلى حجرة زوجه الكريمة.

و هؤلاء النساء جميعا يلبسن عباءة تسمى ب (إيزار) عند ما يتركن الدار و هى مصنوعة من قماش حرير ملون بألوان زاهية جميلة و مزينة بأسلاك من الفضة و الذهب. و هذا (الايزار) يغطى أجسام تلك النساء الجميلات من قمة الرأس إلى أخمص القدم بحيث لا يبدو منهن شىء. و الشابات منهن يضعن فوق رؤوسهن طاقيات خفيفة مزينة بأسلاك من الذهب و الفضة و لا سيما على حواشيها و لهذه الطاقيات الجذابة بما يشبه الذيول تتدلى عادة على جانبى الرأس و يمتد منها ضفائر من شعرهن الطويل تصل بعض الأحيان إلى النحر.

أما النساء المسنات فإنهن يضعن على رؤوسهن طاقيات من نوع آخر و تتميز بطولها و انها مبطنة من الداخل بالقطيفة اللماعة و أنها تخفى جانبا من جبينهن.

و تلبس الأمهات و الأخوات عادة أثوابا حريرية مزركشة مكونة من قسمين علوى و آخر سفلى و هى مكشوفة الصدر و ضيقة عند الحاجة لإبراز مفاتن الجسم! كما أن هذه الأثواب فى الغالب مزينة بأسلاك من المعدنيات النفيسة أيضا. و لم تكتف نساء هذه المنطقة بكل هذا بل يغرفن أنفسهن بالحلى الذهبية و الجواهر النفيسة لدرجة كبيرة بحيث إن مخزن أكبر كنيسة لا يستطيع أن يضاهيها و ينافسها ..

و أكثر هذه الحلى هى أطواق ذهب غالية و زنارات و أسورة و أقراط و خواتم تغطى أجسام النساء، و هن يتفاضلن فيما بينهن بعدد و كثرة تلك الحلى. و أعترف- بلا موارية- بأننى مهما أوتيت من مهارة و حذق فى الكتابة لا أستطيع أن أصف جمال و جاذبية النساء الكلدانيات. و لكن المؤسف أنهن مثل النساء الأخريات فى هذه البلاد- اليهوديات و المسيحيات و المسلمات-

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۸۱

جامع و شارع فى بغداد

مبتليات بعدو خبيث يسمى «الأخت البغدادية» يشوه جمال صورتهن بما يترك فيها من ندوب، و لم أجد حتى الآن امرأة من هؤلاء النساء تكون قد نجت من هذه الآفة اللعينة، و يخيل للرائى أنه قد رمى على صفحة وجه كل منهن «أوكسيد سولفوريك» فشوهها هذا التشويه. و هذه «الأخت البغدادية» أول ما تظهر تكون نقطة بيضاء على الخد أو أى مكان آخر من الوجه ثم تحمر و تتورم بشكل ظاهر.

تظهر بعد ذلك عليها قشرة كبيرة كما هو الحال فى الجدرى و عندما تيبس هذه القشرة و تسقط تتخلف عن ذلك ندبة صغيرة فى الوجه تشوه جماله.

و لقد علمت أنه حتى الوافدون إلى بغداد من الخارج لا ينجون من هذه الآفة فإن لم تكن أصابتهم بها حال قدومهم إليها، فلا محالة أنهم يصابون بها بعد حين على أبعد الاحتمالات، و لكن الذى يبعث على العجب ان هذه الآفة لا تصيب إلّا البلديات من أهل هذه البلاد. أما الأوروبيات فإن أصبن بها فيكون

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۸۲

ذلك على أبدانهن لا على وجوههن، مع علمنا بأن إصابتهن بها جد قليلة.

و أغرب من كل ذلك أن الأطباء لم يستطيعوا أن يجدوا دواء يعالجون به هذه الآفة العجيبة حتى الآن.

*** و بعد أن انتهت مراسم الاستقبال اجتمعنا كلنا فى حجرة الطعام حول مائدة لم تكن بالطويلة و هنا أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، و كان أن ذكرت مدينة الموصل و خرائب خرساباد و قوئيون جيق «قوسنجق» ، فأبدى زوجى مارسيل رغبته الملحة فى زيارة تلك الأمكنة التاريخية، بيد أن الراهب الذى كان يجلس معنا حول مائدة الطعام كان قدم من الموصل قريبا صرف نظر زوجى من القيام بمثل هذه السفرة بقوله: إن الحفريات قد عطلت منذ حين فى تلك المناطق و إن الأبنية التى اكتشفت و أخرجت من تحت الأرض قد غطاها التراب مرة أخرى و أخفتها الأوحال التى أحدثتها الأمطار الغزيرة بحيث لم يعد يبدو منها شىء» ثم أضاف يقول: «و إذا أردت أن تشهد منازل سارغون و سنحاريب مثلا فيجب عليك فى هذه الحالة أن تزيح التراب و الأوحال عنها أى يجب أن تقوم بحفريات جديدة و هذا ما لا تستطيع القيام به على ما أعتقد»!

۱۸- ديسمبر:

سمعت- أول من أمس- زوجى يقول: «إننى عندما كنت فى ايران خلال سفرتى هذه كان ذكاء و حس أهالى هذه البلاد موضع عجبى و إعجابى و لكنى كنت أبدى تذمرى و شكواى فى نفس الوقت من إدارة البلاد و طرز حكومتها و أخلاق و سيرة شعبها. و منذ و طأت قدمى تركيا- و يقصد أرض العراق أخذت أترحم على الأيام التى أمضيتها فى إيران و آسف على فراقها و الابتعاد عن شعبها- على علّاته- حتى يخيّل إلىّ أننى خرجت من الجنة و هبطت إلى دركات الجحيم».

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۸۳

يعتقد جماعة من ساسة أوروبا المحنكين! أنه من الممكن نقل الحضارة الغربية الجديدة إلى الشرق و العمل على تمدينه و تلقيحه بمبادئ هذه المدنية المادية الحديثة فى شتى مرافقه و لا سيما فى شكل حكومته ..

و لكن أى اعتقاد خاطئ هذا .. إن ماكنة حضارتنا نحن اليوم معقدة بحيث لا يستطيع القيام بها شعب من شعوب الشرق الجاهل الساذج هذا. إن العادات و القواعد الأوروبية تستطيع أن تعمل على ترقية و تقدم البلدان الشرقية بل ينبغى علينا أن نوجد لهم مبادئ أخرى نستخلصها من روحيتهم و ميزاتهم النفسية عندئذ تكون سياستنا نحوهم ناجعة و مفيدة. و لأضرب لكم مثلا قريبا فنظام الحكم و الإدارة فى إيران اليوم هو كما كان فى السابق على أيام ملوك الطوائف و من سبقهم، أما فى تركيا فالنظام مستمد من نصوص و مبادئ اوروبية .. و هل تصدقون بعد ذلك ان الحكومة المنشأة على آخر طراز فى تركيا أى التى لها محاكم منظمة و جيش عرمرم من الشرطة و قوات الأمن لا تستطيع أن تحافظ على الأمن و النظام بقدر ما تستطيعه حكومة إيران (البسيطة) كما يحلو للبعض أن يقولوا .. الحكومة التى ليس لديها تشكيلات الحكومة التركية الحديثة!

إن تقليد الحضارة لا يجدى نفعا أيها السادة المحنكين بل يجب أن ننعم التفكير أكثر من ذلك و نعمل بما توحى إليه مصلحة تلك الشعوب ..

و إننى أؤكد بأن رأى زوجى فى أوضاع تركيا المتردية تلك لم يكن من باب الحدس أو العاطفة أو التفكير المرتجل السريع، بل إنه مبنى على دلائل و براهين لا تقبل الرد. و ينبغى لنا ألا تخدعنا المظاهر فنأخذ بها و نعدها شواهد حضارة و معالم مدنية كالعمارات الضخمة و الأبنية المزوقة فى القاهرة (؟) و اسطنبول أو اى مدينة تركية أخرى. فتلك لم تكن غير مظاهر مزيفة براقة لحقيقة مؤلمة لا تستطيع أن تخفيها على أى حال أمثالها عن الأنظار أو الأذهان. و قد تكون تلك مظاهر قام بها ولاة الأمور العثمانيون، أما خوفا من الفرنسيين أو الانكليز و إما تلبية لرغبة من رغباتهم بعد أن أخذت دعوتهم لها بالأخذ بمبادئ الحضارة الأوروبية لهجة التهديد و

الإنذار!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۸۴

و أيّا كان الأمر فإذا ما أراد إنسان أن يعرف حقيقة أوضاع تركيا اليوم و فساد حكومتها ينبغى له أن يذهب إلى الأصقاع البعيدة من أراضيها كمدينة بغداد التى تعد عاصمتها الثانية ليطلع على الجهاز الحكومى الفاسد المرتشى الظالم لا أن يبنى حكمه على المدن القريبة من أوروبا ..

لقد أفلس أحد المصارف الكلدانية فى الموصل سنة ۱۸۸۰ و عند مراجعة دفاتره وجد أن أحد موظفى الكمرك الصغار قد استطاع براتبه القليل أن يدخر أو يجمع فى هذا البنك مبلغ ستمائة ألف فرنك، و هو ما كان يتقاضاه من رشوة خلال أداء أعماله الرسمية طبعا!! و من البديهى أن هذا الرقم ليس مهمّا و كبيرا بالنسبة لما يحصل عليه الموظفون الكبار أو المديرون عند ما يشاركون فى صفقة من الصفقات غير المشروعة أو فى الأعمال التى تعرض عليهم بصورة دائمة و يرتشون فيها!

فمثلا- أنشأ أحد رؤساء الإدارات بناية عامة مرتين بعد أن أحرقها فى المرة الأولى، و أغرب من ذلك أنه لم يضع أساسا لها. و لقد حصل بهذه الطريقة الشيطانية على المبالغ الكبيرة التى خصصتها الحكومة لتصميم هذه البناية الرسمية!!

و قواد الجيش كثيرا ما يفتخرون بسفرات حربية غير حقيقية يقومون بها ليتقاضوا عنها مبالغ كثيرة. و أخيرا سار الضباط الكبار الترك بجيش لا وجود له من بغداد! إلى بعض الأصقاع، و بعد فترة قليلة أخبروا الباب العالى بأنه أبيد عن بكرة أبيه- أى الجيش- و لقد قام هؤلاء الضباط بهذه المعركة الحربية غير الواقعية!! لتغطية ما كادوا يتعرضون له من فضيحة بيع أسلحة كثيرة هى عتاد جيش كامل و التصرف براتب جنده لا لشىء غير ذلك!!

و أنكى من كل ذلك أن المسؤولين الكبار فى اسطنبول و الزعماء الدينيين الذين هم موضع ثقة و اعتزاز الطبقة النيرة الواعية فى هذه البلاد يتزوجون عادة بنات شيوخ القبائل المنشقة و العاصية، و عندما تسير الجيوش إليها لإخضاعها يخبر هؤلاء الحكام الكبار و الزعماء البلديون رؤساء تلك القبائل الذين هم أصهارهم بصورة سرية لكى يتهيؤوا للدفاع عن أنفسهم أو الفرار!! و كثيرا ما

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۸۵

يحدث أن يتفق هؤلاء الزعماء و الحكام مع شيوخ القبائل على وضع قوافل تلك الجيوش فى أمكنة خاصة أو تسييرها من محلات معينة حيث ينصب لها الكمين ليسهل على أفراد تلك القبائل مهاجمة الجند و سلبهم و نهبهم، و من الطبيعى أن للضباط الكبار أولئك نصيبا من المواد المسلوبة!!

و لقد حصلت إحدى القبائل المعروفة باسم «ضماوند» على ثروة كبيرة عن هذه الطريق! و تعداد عوائل هذه القبيلة لا يتجاوز المائتين و إنها ما زالت منشقة و عاصية على الحكومة المركزية منذ خمسين سنة، و مهما حاولت الحكومة إخضاعها لم تستطع حتى أبدت فى النهاية عجزها و اعترفت بالأمر الواقع! و تركت الحبل على الغارب!

و على الرغم من أن الضباط الترك هم خريجو مدارسنا الحربية فى فرنسا و طالما يفتخرون بحبهم للوطن و إخلاصهم للشعب فهم يدفعون قبيلة شمر إلى العصيان و الخروج عن القانون، لا لشىء سوى تجييش الجيوش إليها و أن يكونوا هم على رأسها و يحصلوا على ثروات أو مجد بهذه الطريقة و إن كان يتم على حساب قتل عدد كبير من الجند أو أفراد تلك القبيلة!

هذه هى أوضاع تركيا التى أخذت بمدنية الغرب. و الحق يقال إنه كان لأبنائها الطيبين خصلة حميدة واحدة و هى احتفاظهم بالصداقة و الاهتمام بها، و لكن اليوم فقدت العادات الحسنة، حتى هذه الخصلة عند أبناء الترك الذين يدرسون أو يعيشون عندنا فى أوروبا. و بمجرد أن ارتدوا الملابس العسكرية أخذوا فى السلوك غير المرضى و الارتشاء و التزوير و ما شابه ذلك، و هؤلاء الضيوف الذين يختلفون إلينا هنا فى منزل القنصل و يبدون عطفا و تودّدا و يحتسون كؤوس الشمبانيا و يأكلون لحم الخنزير و الطعام الذى يطبخ بأيد غير مسلمة مما حرمته قوانين نبى الإسلام على أتباعه- ما هم فى الواقع إلّا مخادعون و كذابون فى عواطفهم و إحساساتهم و لو لا

خوفهم من الجزاء و العقوبات ما توانوا لحظة واحدة فى قتل الأوروبيين الذين يزورون بلادهم.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۸۶

يحمل الأتراك فى طوايا قلوبهم حقدا دفينا للنصارى و يكرهونهم كرها شديدا ذلك لأنهم يعدوننا كفارا و خارجين عن كتاب اللّه و سنته فيجب الحذر منهم و الابتعاد عنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا! ثم لأننا نريد أن نغير عاداتهم و تقاليدهم الشرقية بما نلقنهم من ثقافة و علم، و خلاصة القول أنهم يعدون معلميهم و مربيهم الأوروبيين أحقر و أقذر من الكلاب السائبة!

و الواقع أن ثمة أسبابا كثيرة تعمل على انهيار الامبراطورية العثمانية يوما بعد آخر و انحطاط مجتمعها و منها عادة تعدّد الزوجات التى يأخذ بها الأهالى جميعا ثم اعتقاد القضاء و القدر اعتقادا راسخا. و لكن على العكس أرى أبناء الطائفة الشيعية معتدلين فى سلوكهم و سيرتهم، فطائفتهم تؤمن بجانب سلطة القضاء المعمى باختيار الإنسان و أثره فيما يأتيه من أعمال.

و لقد أثّرت عادة تعدد الزوجات عند الترك فى روحيتهم و نفسيتهم و أخلاقهم إلى حد بعيد و خلقت مشكلات متعددة فى مجتمعهم. و الواقع أن هذه العادة موروثة من القديم و أن الإسلام سمح بها تحت شروط معينة إذ ينبغى للرجل فى مثل هذه الحالة أن يسكن كل امرأة يقترن بها فى منزل خاص بها و يعامل كلّا منهن معاملة مساوية معتدلة دون أن يفضل واحدة على أخرى.

و تقتضى- من الطبيعى- إدارة تلك المنازل المتعددة و إجابة طلبات و حاجات النساء المتجددة و ما يحدث بين الضرائر من تحاسد و تنافس و حقد، جهدا كبيرا يجب على الزوج المسكين أن يبذله، كما يلزمه أن يقوم بأعمال كثيرة و أن لا يتورع حتى عن المسائل غير المشروعة لكى يستطيع أن يسد نفقاته المتزايدة .. لذلك ترى الرجل التركى منهوك القوى خائر الأعصاب ذاهلا ..

يتألم من حياته و تخيم عليه سحابة الحزن و الأسى و الشؤم. و فى كثير من الأحيان يفلس و يتعرض لأزمات مالية خانقة تشرد عائلته أو عوائله و ينتهى بنهاية مؤلمة حزينة!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۸۷

و الأعجب هو أن الوزراء و الحكام و زعماء الدين أنفسهم يشجعون هذا الأمر لكى ينتهوا إلى نهايته المؤلمة و يتاح لهم بعدئذ الاستيلاء على ما يملكون بسهولة و يسر إن كانوا من أصحاب الأطيان و الثروات. أما من عداهم فقلّما يقدمون على الزواج بأكثر من امرأة أو اثنتين على أبعد احتمال! و من الغرائب الأخرى فى هذه البلاد أن رؤساء الدوائر المالية و الضباط و من يحكمون فى القرى البعيدة يضاربون بأموال الدولة فى صفقات تجارية أو يشغلونها فى أعمال غير مشروعة. و الخدم و الحشم من جهة ثانية لا يتورعون عن خيانة ساداتهم! و التجار و الكسبة يغشون المشترين و هكذا فقس الأمور و الأحوال!!

و فى رأى زوجى الذى يبالغ فى آرائه بعض الشىء، أن دور النساء فى حريم الأتراك لا يختلف عن دور الجياد التى يحتفظ بها السراة و المثرون فى الاصطبلات للمباهاة و المفاخرة! و بخلاف ما يعتقد الناس لا يكون عدد هؤلاء النساء مرتبطا بقدر شهوة زوجهن بل هو مرتبط بقدر ما يريد الشخص من إبداء علو مقامه و البرهان على سعة يده و ثروته!!

و إيمانهم بالقضاء و القدر لم يكن أقل أثرا من عادة تعدّد الزوجات فى حياتهم المضطربة. فالسنة بنتيجة اعتقادهم بالجبرية و القدرية اعتقادا مطلقا صاروا ناسا كسالى متوانين و تركوا جميع أشياءهم فى كف القدر و الخطر و هم يقولون: «إنا نحارب الأمراض السارية و الآفات المقدرة علينا؟ لما يجب أن نجاهد للقضاء على صعوبة الحياة و مشاقها؟ ألم تكن قدرة الإنسان جزءا من وجوده و كيانه»؟!

و من الطبيعى أن الإنسان لا يميل إلى الأخذ بهذه العقائد و يسلمها تسليما أعمى إلّا أمثال أولئك الترك الجهلة منهم ..

و لقد علمت أن المسلمين المتعصبين و ذوى الإيمان الصادق يخالفون هذه العقائد الخطرة و يدعون إلى محاربتها و القضاء عليها و يجعلون حدّا يسيرا بين القدرة و الجبر و يعترفون بوجود بعض الحالات التى تقف دونها قدرة الإنسان و أن الاختيار لا يقع فى مكنته فيها!!

و كما أن قطعة الحديد تقل صلابتها بأثر طرقها المتواصل بالمطرقة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۸۸

كذلك عقائد الترك بالقضاء و القدر قد خفّت عن السابق لكثرة ما جرت عليهم من الويلات و المصائب! لهذا نراهم فى اسطنبول يأخذون فى إنكار هذه العقائد اليوم و يعدونها من مخلفات العهد البائد و يدعون: «أن ترك أمر الحوادث النازلة إلى السماء لمعالجتها سخف فى سخف» .. و من مظاهر هذا الوعى الفكرى أنهم أنشأوا إدارة خاصة لإطفاء الحرائق على غرار ما هو متبع فى أوروبا .. فى القسطنيطينية ..

كذلك أخذ رجال الدين السنة يجيزون الأهالى فى أن يتركوا دورهم و منازلهم و يقوموا بوقاية أنفسهم إذا ما حلّ بهم وباء مرض معد و تجاوز عدد ضحاياه خمسمائة .. فلا حرج عليهم فى ذلك و لن يرتكبوا ذنبا و لا خطأ!!

و لكن على رغم ذلك ما زالت العقيدة بقدرة القدر و ما يأتيه فى حياة الإنسان و مصيره مخيما على كثير من العقول و تترك آثارا سيئة و نتائج و خيمة فى حياة الأفراد و المجتمعات، و أقل تلك الآثار أنها تجعل منهم ناسا لا مباليين خانعين لا يجشمون أنفسهم التفكير فى الغد و ما يحمله لهم و لا فى الاهتمام بمستقبل حياتهم و بحياة أولادهم. و خلاصة القول أن أبناء الطائفة السنية يعدون عندى من الطبقات الدنيا من أتباع الإسلام لعقيدتهم تلك بفكرة القضاء و القدر بحيث يخيّل انها تسير مع دمائهم أو يخيّل أنها من غرائزهم الذاتية الأخرى كصلابتهم و شدّة بأسهم!!

و بناء على هذه العقيدة التى يدينون بها، تنقلب البلاد الثرية التى يدخلها الترك أو العرب إلى أراضى بور قاحلة بعد مدة وجيزة ذلك لأنهم لا يفكرون فى المحافظة عليها أو ترقيتها، بل يتركون ذلك على عاتق القدر الذى سيتكفل به بحسب تلك العقيدة. و على هذا الأساس أيضا نرى أن الأراضى الرسوبية الخصبة التى تقع على نهرى دجلة و الفرات انقلبت إلى صحارى و برارى أو مستنقعات تكون موطن الأمراض السارية التى تفد إلى أوروبا منذ وقعت فى أيدى هذه الطائفة. و ما زال سكنة هذه البلاد- العراق- من المسلمين يحملون فى عروقهم خصالهم الطيبة الحسنة و لكن بتأثير عقائد الترك السخيفة تلك و أخذهم بعادة تعدّد الزوجات انقلبت حياتهم إلى فقر و مسكنة و لهذا

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۸۹

السبب أيضا أخذ تعداد نفوسهم يقل يوما بعد يوم!

و على أى حال، كتبت اليوم أكثر من اللازم فى الفلسفة و التفلسف؟

و لكن ما ذا أصنع و أحوال هذه البلاد المتردية قد دفعتنى دفعا إلى ذلك العمل و أرجو معذرة القارئ ..

منذ وطئت قدمى أرض هذه البلاد- العراق- كنت أرى فى كل خطوة أخطوها أن جراح هذا الشعب أعمق و أخطر من السابق .. و عندما أقيس ثروة و عظمة البابليين فى القرون الماضية إلى فقر و انحطاط هذا الشعب الآن أدهش و ينقبض صدرى و أتألّم. كيف يمكن ألا يتألم الإنسان من مشاهدة تبدل الأراضى التى تحيط ببغداد إلى صحارى قاحلة لا ينبت فيها إلّا الشوك؟ فى هذه الأرض بعينها فى الزمن القديم- على حد قول هردوت- كانت الحبة الواحدة من الحنطة تنتج فى الأقل ثلاثمائة حبة و كان عرض أوراق الحنطة و الشعير يصل إلى أربع أصابع!!؟ فما الذى حدث لتلك المزارع الغنية تلك التى كانت تنتج من الذرة و السمسم مقادير كبيرة بحيث تدهش الجميع و تأخذ بألبابهم، و هى التى يقول هردوت فى ارتفاع سيقان مزروعاتها أنها كانت عالية بحيث خاف على نفسه الاختناق بينها!

و هل التقصير منى؟ أن أخرج من دار القنصلية و أرى فى كل خطوة أخطوها ما يبعث على القرف و الألم من ظروف تركيا الآسيوية المتردية؟ و ماذا فى يدى و نفسى تذوب أسى لتلك المشاهد السود؟!

عند عبورنا من البصرة رأينا سفينة مسلحة قد تركت .. لماذا؟ لأن مروحتها مختلّة بعض الشىء! أجل لقد تركت تلك السفينة التى ثمنها عدّة ملايين من الفرنكات فى الأوحال و الطين، و لم يجشم أحد من المسؤولين نفسه أمر إصلاحها و لا سيما أن اختلالها ليس

بالمهم الصعب و لا يكلف إلّا عشرات أو مئات الفرنكات؟!. و فى هذا اليوم ركبنا من الضفة اليمنى من نهر

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۹۰

قافلة حمل الأسماك

دجلة الترامواى- حيث تقع هناك محطته- لكى يوصلنا إلى الكاظمين بفترة ربع ساعة أو عشرين دقيقة على أبعد احتمال!! و لكنها لم تكد تقطع نصف الطريق حتى توقفت عن السير و هبط السائق منها و رجا منا أن نترك الترامواى.

و سألت عن سبب هذا التوقف فقيل لى إن أرض منعطف الطريق الصغير الذى بلغناه قد خسفت و إذا أراد الترامواى أن يتابع السير فلا محالة أنه يسقط على الأرض، و لقد علمت أنه قد مضى على هذه القطعة الصغيرة المخربة من الطريق ثمانية عشر شهرا و لا يهتم أحد بإصلاحها و تعبيدها. و هل يصدق أحد أن المهندسين الترك اللاهين فى مدة هذه السنة و النصف التى مرّت على انهدام هذه القطعة الصغيرة من الأرض لم يكلفوا أنفسهم شيئا سوى القيام بكشف أمرها و رفع التقارير عنها لتعميرها .. و هذا لم يتم حتى الآن و أعتقد أنه لن يتم إلى الأخير؟!

و لقد وضعوا هنا عددا من الحمالين لدفع حافلة الترامواى و نقلها إلى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۹۱

الجهة الأخرى بعد أن يتركها الركاب. و هذه العملية تتم فى دقائق ثقيلة و بجهد جهيد يبذله أولئك المساكين. و لما كانت المسافة بين بغداد و الكاظمين لا تتجاوز الفرسخ الواحد كان من المنتظر أن يقطعها الترامواى فى ربع ساعة أو عشرين دقيقة و لكن عملية النقل هذه لا تنتهى إلّا فى أكثر من ربع ساعة يقضيها الركاب فى انتظار مرّ .. لذلك يفضل بعضهم أن يقطع المسافة الباقية مشيا على الأقدام، فى حين أنه من الممكن إصلاح هذه القطعة و رفع السكة الهابطة فى ساعة أو ساعتين بواسطة أولئك الحمالين أنفسهم.

و تستطيع أن تقدر من خلال هذه الحادثة أوضاع هذه البلاد المتردية و درجة عدم مبالاة المسؤولين للأمور العامة.

يلاقى أهالى بغداد الأمرّين من هذا الترامواى المتواضع بحيث إنه لم يلاق الفرنسيون فى حفر قناة السويس أو الامريكيون فى مد الخطوط الحديد من أقصى قارتهم إلى أقصاها .. من نيويورك إلى سان فرنسسكو مثله.

و لقد أنشأ هذا الطريق الحديد الذى لا يتجاوز طوله ستة كيلومترات مدحت باشا و الى الترك على العراق. و الواقع أن هذا الرجل قد انفرد بين الولاة العثمانيين المولين على هذه البلاد بإصلاحات جمة و مفيدة فيها. و لكنه على رغم ذلك كانت تعوزه بعض المهارة فى تنفيذ مشاريعه الإصلاحية و إخراج أفكاره إلى حيز الوجود .. و لأضرب لكم مثلا! فالمهندس الذى استعان به ليصمم خريطة إنشاء هذا الطريق الحديد قال له إن للنهر بين هاتين المدينتين عواقيل و منعطفات كثيرة، فلا يمكننا و الحالة هذه أن نشق طريقا مستقيما يصل بين المدينتين إلّا إذا أقيم جسر على النهر .. و وافق الوالى على الفكرة فى البدء و لكنه عاد و عارض إنشاء الجسر لخوفه من كثرة تكاليفه الباهظة، و فضّل أن يكون الطريق معوجا ملتويا فى طريق ضيق مترب تسير فيه الدواب و الحيوانات و أن يهدم بساتين الليمون و مزارع النخل و حقول الحبوب؟! لا لشىء سوى خوفه من أن تكون تكاليف هذا الجسر باهظة و كثيرة؟!

و لما بقى من أشجار تلك البساتين منظر خلّاب جميل أخذ بمجامع قلبى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۹۲

مقبرة فى بغداد

كما أن رائحتها الذكية العطرة جعلتنى كالمنتشية، و كم تأسفت على أنى قطعت هذا الطريق و أنا راكبة فى هذه الحافلة و حرمت نفسى هذه المتعة الرائعة بذلك المنظر!!

و لكنه لم يطل كثيرا حتى انقلبت تلك المشاهد الجميلة المعطرة إلى أراض قاحلة ليس فيها زرع و لا نبات .. اللهم إلّا مجارى و سواقى للمياه عتيقة مندرسة تذكر بوجود مزارع واسعة كبيرة فى قديم الأيام.

و الواقع أن مناظر هذه الأراضى كانت تبعث على الأسى و الوحشة و الضيق بعد أن مررنا بتلك المزارع الفتانة التى لا أدرى كيف انتهت و انقلبت إلى هذا الشكل بهذه السرعة!

*** عند خروجنا من بغداد كانت تبدو عن بعد بين قمم النخل السامقة رؤوس أربع منائر ذهبية متلألئة و هى منائر مقبرة الإمام موسى الكاظم و عندما قربنا منها رأيت بين أغصان و أوراق الأشجار المتكاثفة التى تملأ طريقنا، قبتين جميلتين متلألئة تشبهان إلى حد بعيد قبة مدينة «قم» فى إيران من حيث الشكل و طليهما بالذهب البراق من الخارج.

و أخيرا بلغنا الكاظمين و هبطنا من الترامواى فى محطته التى تقع قرب

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۹۳

بوابة المدينة الكبرى و سمعنا خادم القنصلية الذى كان معنا يدعونا بصوت مرتفع و بلهجة تركية لا نفهمها جيدا إلى مقهى قريب و قال: «ينبغى أن نمكث هنا فى انتظار الترامواى الذى سيقدم بعد ساعتين من بغداد»! لقد كان يظن صاحبنا المسكين هذا أننا لم نقدم إلى هنا إلّا لنتنزه فى ركوبنا بهذه الحافلة المهشمة و بهذا الطريق المهدم، و لعله كان يحسبنا على هذا الأساس ناسا معتوهين و لكننا أفهمناه بالإيماء تارة و بالألفاظ تارة أخرى أننا لم نقدم هنا إلّا لكى نزور المسجد و المقبرة التى هناك، و ينبغى لنا بغير تردد أن نذهب لرؤيتهما. و ما إن علم بقصدى هذا حتى بدأ الاضطراب و القلق على وجهه واضحا جليّا بيد أن إصرارى أجبره على الإذعان لمشيئتنا.

تظهر أزقة الكاظمين أنظف من أزقة بغداد و أن أغلب أهالى هذه المدينة و كسبتها هم من الإيرانيين الذين جاؤوا لزيارة العتبات المقدسة فى العراق و بقوا فيها.

و بعد أن جبنا قسما من الأزقة و الأسواق سار بنا الدليل إلى فسحة كبيرة من الأرض وضعت فى الجهات الثلاث منها كميات كبيرة من الخضروات و الفواكه، أما الجهة الأخيرة التى كانت تقابل باب المقبرة فإنها كانت خالية من كل شىء، و كان العمال يدخلون منها زرافات و وحدانا و لقد دخلت أنا كذلك منها و عبرت خلال أكوام البطيخ و الرقى و الكلم (اللهانه) بصعوبة و ألم و لكننى كنت فرحة على رغم ذلك .. لأننى كما كنت أقول لنفسى- ها أنذا اطلع الآن على تلك المقبرة التاريخية التى طالما تمنيت رؤيتها. و لكن أى وهم كان هذا و أى خيال .. فما كاد باعة الخضروات يعرفون بغيتنا حتى تجمهروا حيالنا و منعونا من الدخول و قالوا: «الدخول إلى ضريح الإمام موسى الكاظم ممنوع .. أنتم نصارى و ليس لكم الدخول إلى مثل هذا المرقد الشريف فأنتم أجدر أن تعودوا أدراجكم و تصرفوا النظر عن تحقيق هذه الرغبة»!!

دهشنا نحن لهذه الأقوال و وقفنا مأخوذين كالمسمّرين فى مكاننا لا نبدى حراكا لا للهجتهم و أسلوب حديثهم، فالواقع أنهم كانوا يتحدثون معنا بأدب و لطف جم و لكننا دهشنا للسبب التافه فى منع دخولنا ..

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۹۴

و على أى حال أخذ تجمهر الناس يزيد فترة بعد فترة علينا و أخذ جماعة منهم يلومون خادم القنصلية على مرافقته لنا لتحقيق رغبتنا هذه. ورد عليهم الخادم بألفاظ لم نفهمها كانت السبب فى هيجان الجمهور المحتشد و إبعاده عن المكان بالقوة و بألفاظ نابية جارحة. و تأثر الخادم المسكين كثيرا لما لحقه من إهانة، فأراد أن يجرد سيفه من الغلاف و يهجم على هؤلاء المتجمهرين و لكن زوجى مارسل أمسكه من زنده و منعه من ذلك مخافة أن نقتل جميعا إذا ما أريقت قطرة واحدة من الدم. بيد أن الخادم أبى الإذعان فى بادئ الأمر فأخذ يضرب يمنة و يسرة و يحاول التخلص من كفى زوجى القويتين لينتقم ممن ألحقوا به الإهانة!! و لقد ذكرتنى هذه الحادثة بحادثة سبق أن اتفقت لنا عند ما أردنا زيارة مرقد «إمام زاده جعفر» فى أصفهان من أعمال إيران.

سألنى مارسل ماذا يجب أن نعمل بعد كل هذه التطورات؟ أجبته بعد لحظة من التفكير: أرى من الأولى أن نعود من حيث أتينا و نحفظ أنفسنا من القتل. لأننا لم نعد تستطيع بعد هذه الوقائع أن نزور المقبرة ما دام تجمهر الناس على أشدّه، كما أن موظفى الترك لا

يقدمون لنا أية مساعدة فى تحقيق رغبتنا هذه .. و لا نستطيع كذلك أن نبادر إلى استعمال القوة مع الإيرانيين فى مثل العمل لأنه لم يبق لهم من نفوذ فى هذه البلاد سوى هذه الامتيازات المذهبية التى يقدسونها و يحافظون عليها.

و لو كنا قد أقبلنا بمفردنا بغير خادم القنصلية اللعين الذى سبّب تطوير القضية إلى هذا النحو، و لو استعنا بزعماء الشيعة من رجال الدين لاستحصال إجازة خاصة منهم للقيام بزيارتنا كان تحقيق رغبتنا لا شك فيه، و لكن الآن قد خسرنا اللعبة و لا حيلة لنا إلّا فى العودة و العود أحمد.

حال الأوروبيين الذين يعيشون فى تركيا سيئ مؤلم و إن كانوا تبعة دول أقوياء كإنكلترا و فرنسا. فلو أن نصرانيّا ضويق فى حياته أو معاشه و حتى إذا قتل فإن اعتراضات و احتجاجات القنصل لا تثمر شيئا و المذنب و المجرم

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۹۵

يبقى حرّا طليقا دون أن يصيبه أذى، و حتى لو قبض عليه و قدم إلى ساحة العدل فسرعان ما تبرئ المحكمة ساحته و تطلق سراحه. و الإنكليز المغرورون الذين يفخرون بنفوذهم فى الشرق لا ينجون كذلك مما يلاقيه الأوروبيون الآخرون كما أن الموظفين الأتراك لا يصغون إلى شكاويهم من العذاب الذى يسببه لهم الأهلون و الكلمات النابية التى يسمعونهم إياها ..

و قبل مدّة قليلة قدم أحد الصحفيين الإنكليز من نيوهافن إلى هذه البلاد و اشتجر مع أحد الأهليين فى نزاع قتل على أثره و قطع جسمه إربا إربا بالسكين. و على رغم أن القنصل البريطانى كان يعلم اسم القاتل و لديه أدلة كثيرة قاطعة على قيامه بالجريمة، لم تثمر محاولاته و لم يجد سعيه لدى المسؤولين من الاقتصاص منه و ظل القاتل و هو رجل تركى يباشر عمله بحرية و اطمئنان.

فالإنسان العاقل على أى حال ينبغى أن يعتبر بمثل هذه الحوادث و أن يتمسك بأهداب الحذر و الحيطة فى كل عمل يقوم به هنا فى هذه البلاد العجيبة، و أن يحسب ألف حساب لكل خطوة يخطوها. لذلك فضلنا نحن أن نخرج من هذا المعترك دون أن نبدى حمقا و طيشا. سرت أنا أولا ثم تبعنى مارسل و كان فى مركز الحلقة المضروبة حولنا و هو ممسك بيد خادم القنصلية يجره معه. و بعد لأى وصلنا إلى زقاق ضيق و ابتعدنا عن ذلك الجمهور المحتشد الذى أخذ يشبعنا بألفاظ نابية و يرمى بقطع من الأثمار و الخضروات علينا و لكن من حسن الحظ أنها كانت فاسدة لينة لم تصب منا مقتلا.

فى أثناء تلك الحوادث التى كان زوجى مارسل يتحمل فيها ضربات و ألفاظ ذلك الجمع المتجمهر الحانق، لم أضع الفرصة من يدى فلقد استغللت فرصة انشغال الجمهور و أخذت اتطلع من شق باب المقبرة التى كانت مفتوحة على النصف إلى داخلها و استطعت أن أشهد بعض مرافق المقبرة و الباب الذى كان فى نهايته صحن واسع جميل. و هذا الباب- كما تراءى لى عن كثب-

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۹۶

مصنوع من الكاشى الملون الذى زوّق بالميناء بشكل أخاذ، و أمام هذه الباب يقع رواق طويل تحيط به من الجوانب أعمدة ضيقة مزينة بقطع من المرايا على أشكال هندسية مختلفة. و على العموم لو لم تكن لهذه البناية قبتان ذهبيتان لكان منظرها يعيد إلى الأذهان منظر قصر «چهل ستون»- قصر تاريخى قديم و معنى اسمه «القصر ذو الأربعين عمودا»- فى أصفهان.

و فى زوايا البناية أربع منائر مرتفعة مطلية أعاليها بالذهب. أما بقية أقسامها فهى من الكاشى الأخضر. و فى هذه المآذن يقف المؤذنون و يدعون المؤمنين إلى الصلاة. و فى جوانب القبتين كانت تتراءى لى أبراج صغيرة شبيهة إلى حد بعيد بمحلات الرقابة التى فى أعالى القلاع الحربية.

و الخلاصة .. ما إن نجونا من حلقة ذلك الجمهور المحتشد و ابتعدنا عنه حتى أخذنا نجول فى أطراف المقبرة و نتفرج على جدرانها من الخارج متحررين من كل قيد أو خوف، ثم كان أن تشجعنا بعض الشيء فأخذنا ننظر خلال شقوق أبواب المقبرة إلى داخلها بكثير من الحذر و الوجل و استطعنا أن نرى ما تحتويه البناية فكانت إلى جانب المقبرة و المسجد مدرسة و بضع خانات و حمامات أنشئت خصيصا للزوار و المصلين ..

مسجد الكاظمين هذا أنشئ فى العهود الإسلامية الأولى بصورة بسيطة و لكن الشيعة أضافوا إليه قسما من المرافق كما زينوا جدرانه بنقوش و بفسيفساء، على حسب الفن العمارى الإيرانى منذ قريب بحيث ما زال البلاط نديّا كما أن قسما من تلك الجدران لم يتم عمله حتى الآن و أن أقساما من القبب المذهبة تبدو متهدمة تشوه منظرها الجذاب!!

و بعد أن جلنا فى أطراف المقبرة اضطررنا أن نذهب إلى مقهى قريب لننتظر مجيء الترامواى. و لقد قابلنا فى عودتنا ببرود و بعدم اهتمام، ألفاظ و أذى فئة من الأطفال السائبين الذين أخذوا بتعقيبنا و بالترفيه عن أنفسهم بالنيل منا و تجريح مشاعرنا!

كان المقهى الذى جلسنا فيه صغيرا بعض الشيء و بعد أن أخذنا مكاننا و حسونا فنجانين من القهوة و بضعة أقداح من الشراب استرجعنا أنفاسنا مما رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى ؛ ص۹۷

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۹۷

لقينا و عاد الهدوء و الأمن إلى نفس خادم القنصلية الذى عذب و أوذى لكونه سنيا يرتدى الطربوش الأحمر و لمرافقته لنا نحن الأوروبيين!

بعد مدة من الانتظار تحرك الترامواى ينهب الأرض نهبا، و لما كانت هذه آخر مرة يقود السائق عربة الترامواى فى هذا اليوم أخذ يلهب ظهر الجياد بالسوط بقساوة و ضراوة ليزيد من سرعتها، فيصل إلى منزله فى أقرب فرصة ممكنة دون أن يفكر بعواقب عمله الخطر هذا كأن تخرج العربة من السكة أو تنقلب و لا سيما و الحافلة كانت مكتظة بالركاب و هؤلاء الركاب كانوا من طبقات مختلفة و من أديان شتى فيهم اليهودى و النصرانى و المسلم و كانوا كالسمك الطرى الذى يوضع فى الإناء لشيه، يرتفعون و يهبطون حسب سير و اهتزاز الحافلة!!

زقاق من أزقة بغداد

و ما إن خرجت الحافلة من السكة و وقفت برهة حتى وجدنا الفرصة لنتنفس الصعداء .. و لكنها لما عادت إلى السير مرة أخرى كان سيرها أسرع من قبل و أخذت النسوة فى الصراخ و العويل من الخوف، أما السائق فلم يعر كل ذلك اهتماما فزاد من إلهاب ظهر الجياد بسوطه و كانت سرعة الحافلة تزيد بنسبة ذلك و حتى وصولنا إلى طرق و أزقة ضيقة لم يعمل على تخفيف سرعة الترامواى .. فى تلك الطرق التى كانت حركة مرور الناس على أشدها.

و فى أحد تلك الأزقة الضيقة مررنا بمجموعة من الحمير يحمل كل منها سمكة كبيرة واحدة و هو ينوء بحمله هذا بشكل ظاهر.

و هذه الأسماك الضخمة التى توجد فى مياه نهر دجلة تسمى فى العراق

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۹۸

ب «تبى» «؟» إلّا أنه ليس لها تلك المزايا التى ذكرت فى التوراة من أنها تعيد إلى العميان النور. ذلك لأن العميان الكثيرين الذين فى بغداد اليوم يثبتون هذه الحقيقة التى أقولها! و لكنها على رغم ذلك تعد مصدرا مهمّا من مصادر غذاء الطبقات الفقيرة فى هذه البلاد الذين لا تسمح حالتهم المالية بشراء لحوم الغنم الغالية فيعتمدون فى غذائهم على لحوم هذه الأسماك الرخيصة عوضا عن ذلك.

و فى هذه الأثناء حدث هرج و مرج إذ ذعرت الحمير لمفاجأة الترامواى لها ورمت أحمالها على الأرض و أخذ أصحابها يسبون و يلعنون سائق الترامواى بلهجة خشنة و السائق يجيبهم. و الواقع أن ذلك كان مشهدا تمثيليّا رائعا و ما كان أشد أسفى على أنى لم أفهم معانى هذه الألفاظ المتبادلة بالضبط و لم أستطع أن أحفظها لسرعة سير الترامواى!

و لقد علمت أن السفرات الأخيرة بين بغداد و الكاظمين تتم على هذه الشاكلة كل يوم و أنه كثيرا ما تقع حوادث مؤسفة يذهب ضحيتها عدد من الركاب و لكن الأمر الذى يبعث على العجب و الدهش هو أنه لم يرفع أحد عقيرته بالشكوى عن تصرفات السائقين تلك، و أغرب من ذلك أن هؤلاء السائقين لا يعدون أنفسهم مسؤولين عن تلك الحوادث المؤسفة بل يردونها إلى أحكام القضاء و القدر و ما يريده اللّه لعباده. و المهم أننا وصلنا إلى المنزل سالمين، لم يحدث لنا فى هذا الطريق الخطر ما وقع لجماعة من الركاب من

حوادث كسر الأيدى و الأرجل و ما شابه ذلك، إلّا أن خادم القنصلية المسكين لاحقه الشؤم و لم ينج من تلك الأحداث فكان نصيبه أن فقئت إحدى عينيه و أصابته رضوض و عدة جراح فى رأسه! و لو أردت الدقة لقلت بأن الشىء الوحيد الذى كان لحقنى هو أن تلوثت ملابسى بكمية كبيرة من العسل، إذ كان أحد الركاب يحمل معه كوزا من العسل لم يستطع أن يحافظ عليه خلال حركة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۹۹

التراموای المترجرجة فطفح بعض ذلك على ملابسى. و الغريب أن صاحبى هذا أخذ يلعن الأرض و السماء لا لشىء إلّا لأنه فقد بعض عسله!! أما ما سببه لى من تلويث ملا بسى فلم يكن بالبداهة بالشىء المهم عنده.

إن كنا قد لقينا كل تلك المصاعب و المشاق فى سفرتنا القصيرة هذه و لم نستطع أن نصل إلى نتيجة مفيدة تذكر، فمن حسن الحظ أنه قد وعدنا المسيو «موجل» الذى يعمل هنا كمهندس أن يعطينا صورة واضحة للمقبرة بكافة مرافقها بعد أن نقلنا إليه تفاصيل سفرتنا غير الموفقة هذه.

و لقد كان يقول المسيو موجل إنه أيضا لم يستطع الدخول إلى المقبرة بحرية لكونه نصرانيّا و لكنه اختلت ذات يوم الساعة الدقاقة الكبيرة فيها فطلب منه إصلاحها و عندئذ حمل مع أدواته الهندسية آلات تصويره الدقيقة و التقط عدّة صور من على سطح المقبرة و من جوانبها المختلفة ..

و لقد وفى المسيو موجل الطيب القلب بوعده فأعطانا تلك الصور الجميلة، فشكرنا له جميل عاطفته و حسن مودته!!

و الخلاصة .. أننا أمضينا بقية ذلك اليوم نتجاذب أطراف الحديث و نحن متحلقون حول المدفأة بمجموعنا .. و لقد اكتشفت أن لمدام پرتيه زوج القنصل الفرنسى صفات جديدة أخرى، فقد بدت صاحبة نكتة حاضرة و بديهة سريعة كما أنها حدثتنا بلسانها العذب عن معرفتها لكثير من السياح و المسافرين الأجانب الذين زاروا هذه البلاد و عرضت علينا صورا جميلة رسمتها بيدها، و الواقع أنها كانت صورا تدل على مهارة و حذق فى فن الرسم و من تلك الرسوم كانت مشاهد تمثل شخصيات يهودية مضحكة رأتها بعينها.

و مما ذكرته لنا قولها: هل أتيح لكم مشاهدة المسيو ...؟ إننى لا أود أن أذكر لكم اسم هذا الشخص و لكننى أود أن تعرفوا أى آدمى كان هذا؟ و يكفى أن أذكر لكم أن صاحبنا البطل هذا قد ساح جميع مناحى و مناطق الحبشة و أنه زار الهند أيضا.

فهل عرفتم أى عالم متبحر كان؟ و أنه كان صاحب مرتب ألف و خمسمائة فرنك شهريّا لا يدرى كيف يصرف هذه المبالغ الكبيرة و فى أى الوجوه.

و بمجرد وصول هذا الشخص المحترم إلى بغداد و قد كان صديق نكوس

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۰۰

ثيودوروس ! رغب فى أن يزور آثار بابل .. و بسرعة هيئت وسائل سفره و تحرك مع رفقائه و بعد ثمانية أيام من حركتهم هذه عادوا إلى دار القنصلية و العرق يتصبّب من أجسامهم و أنفاسهم تتلاحق حتى يخيل إلى الرائى أنهم يكادون يموتون إعياء و نصبا! و بمجرد وصولهم ذهبوا توّا إلى غرفهم الخاصة ليغتسلوا و يبدلوا ملابسهم التى كانت ألوانها قد تغيرت بالغبار و التراب. أما صاحبنا المسيو .... فقد فضّل أن يجلس إلى جانبى فى الصالون و يحدثنى عن نزهته أو مغامرته على الأصح، و ما زال عليه و عثاء الطريق و الغبار يغطى رأسه و ملابسه بشكل يبعث على القرف. و لقد خيّل إلىّ أول الأمر أن ضيفى هذا مراعاة للأدب و المجاملة لم يذهب إلى غرفته لينظف نفسه لذلك رأيتنى أفهمه بالتلميح طورا و بالتصريح أخرى بأنه حر إذا ما أراد أن يذهب للاستحمام و طلب الراحة، و لا سيما أنه يبدو متعبا أكثر ممن سواه و التراب يغطيه بصورة أبشع من غيره ..

بيد أنه لم تجد كل تلك المحاولات معه حتى لم أر بدّا من القول له:

بأنى قائمة الآن لكى أرى أهيّؤوا لك الصابون و أدوات الحلاقة أم لا؟

ردّ على صاحبى بقوله: إننى أشكر لك هذه العناية بى شكرا جزيلا ..

و لكن اطمأنى يا سيدتى بأننى لا أحلق ذقنى هذا اليوم .. إننى كأى رجل عاقل اعتدت أن أحمل معى ضروريات حياتى .. و هنا رأيته يمد يده إلى جيبه و يخرج منه سكينا مثلومة و قطعة من الصابون و أردف بقوله: إننى قبل أن آخذ مكانى فى السفينة و أبحر من مرسيليا قد حملت معى لوازم سفرى .. ثم أشار إلى السكين و قطعة الصابون!

عجبا .. أو تركت مارسيليا منذ مدة طويلة؟

لا .. و لكنها تقرب من ثلاث سنين و لما رأيت قطعة الصابون على و شك النفاد فقد صرفت النظر عن حلاقة قسم من لحيتى و تركتها تطول .. و فى هذه الأثناء كشف أطراف ثوب صوفى قصير كان يرتديه فبانت لحيته الكثة التى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۰۱

كانت تشبه إلى حد بعيد بحصير منسوج يبلغ طولها ثلاثين سنتيمترا و لكى يتخلص من مشاق تمشيطها كان يخفيها تحت ملابسه على تلك الصورة الغريبة التى لم يسبقه إليها أحد! فقلت له:

الواقع إنه شىء عجيب .. إنك تحمل فكرا عمليّا مجيدا.

أجل .. أجل. إننى متمرس بأمور الرحلات و السفرات البعيدة و خبير بشؤونها و أحمل على الدوام معى حاجاتها الضرورية. و بهذا الشكل سحت فى بلاد الحبشة كلها و أمتعتى كانت منحصرة بمقوى قبعتى!!؟ لا غير.

أين كنت تضع ملابسك إذن؟

بعضها فى جيبى أخرجها وقت الحاجة، أما البقية فكنت أرتديها الواحد فوق الآخر و أذكر أننى عندما أبحرت من مرسيليا كنت أرتدى خمسة أثواب بعضها على بعض .. و ما إن كنت أشعر بأن الثوب الفوقانى قد اتسخ حتى أخلعه لكى يظهر الثوب الذى خلفه نظيفا فى عيون الناس. و الآن لم يبق من تلك الأثواب إلّا ثوبان على جسدى و أعتقد أنهما سيوصلاننى إلى فرنسا ..

و فى هذه الأثناء التى كنا نتحدث فيها و أنا مأخوذة بغرابة أطوار هذا الإنسان الذى لا أدرى بما ذا أصفه دخل الخادم علينا و سأل الضيف المحترم أيحتاج إلى الماء البارد أم الساخن؟

لا أحتاج إلى كليهما .. لا الماء البارد و لا الساخن إننى منذ مدة قد تحررت من مثل هذه العادات السخيفة ..

أجاب صاحبنا المغوار، الخادم بهذا الجواب المقتضب و كانت لهجته حادة و شديدة بعض الشىء حتى خيّل إلىّ أنه قد شعر بإهانة تلحق به من سؤال الخادم المسكين!!؟ و من ثم تابع كلامه على الفور و أخذ يسرد علىّ قصص مغامراته و غريب آرائه و مبادئه؟! كأنه لم يحدث أى شىء ..

و هنا رأيت مدام پرتيه بعد سردها هذه القصة الغريبة تقول و تعلو ثغرها ابتسامة جميلة: و هل تصدقون بعد كل ذلك أن ضيفى المحترم هذا بعد فراغه من اعترافاته و أحاديثه أمسك بيدى و قال: لنذهب معا إلى حجرة الطعام و إننى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۰۲

لم أرد بدّا- بالطبع- من مصاحبته على رغم أننى كنت قد شاهدت أكوام القمل و طفيليات صغيرة تسرح و تمرح على لحيته الكثة و ملابسه القذرة ..

و يغلب على الظن أن هذا الرجل الجليل كان يريد أن يحمل تلك الحيوانات الصغيرة من الحبشة إلى فرنسا كهدايا إلى أصدقائه و معارفه!!

*** و هنا دخل الخادم و قال لمدام پرتيه: إن الغداء قد تهيأ ..

و قبل أن نترك مجلسنا رأيت مدام پرتيه تقول و هى تحدجنى بطرف عينها و الابتسامة ما زالت تعلو شفتيها: «و الآن أنت الرجل الذى ينبغى أن أصاحبه و هو يمسك بيدى» ثم أردفت بقولها: «اسعوا أن تكونوا طيبى العشرة لا كضيفنا الثقيل المذكور»!!

فى تلك اللحظة عرفت قصد مدام پرتيه من سردها قصة مغامرنا الغريب ذلك و انتبهت إلى أنها تعرف مشكلتى العويصة، فاحمرت و

جنتاى خجلا و أحسست جبينى يتفصد عرقا!؟ إذ إننى كنت أشكو وجود القمل و الطفيليات الأخرى فى جسمى بحيث لم يقض عليها استحمامى المكرر و تبديل ملابسى منذ وصلت إلى هذه المدينة، و الواقع أننى خلال سفرتى فى ايران و نزولى مع زوجى فى منازل قذرة فى الطريق كان ذلك سببا فى تلويث ملابسى و أن يجد القمل طريقه إليها و أن يتكاثر و أن يعشش فيها ..

و على أى حال لم أكن كصاحبنا المجهول الذى ذكرته مدام پرتيه و ذكرت خوفه من الماء البارد و الحار على السواء بل على العكس كنت اغتسل على الدوام و لكن المؤسف هو أننى كنت غافلة عن أن مياه البحر المالحة- على خلاف تقديرى- تسبب تكثير القمل.

و إننى لم أصب بهذه «الكارثة» إلّا بفعل زيادة استحمامى بمياه الخليج فى مدينة بوشهر الإيرانية التى أقمنا بها مدة طلبا للراحة و تخلصا من أوضار الطريق و قمله!

و أيّا كان الأمر فلم أر بدّا فى النهاية من أن أحلق شعر رأسى كله

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۰۳

و أضحى به فى سبيل أن أكون طيبة العشرة كما أرادت مدام پرتيه و أن أتخلص من هذا القمل اللعين ..

و لقد كان منظرى عندئذ يبعث على الضحك و السخرية فقد كان رأسى يشبه إلى حد بعيد رؤوس المجرمين الذين يحلقون شعورهم انتظارا لتنفيذ حكم الإعدام بهم ..

و لكن المؤسف أنه على رغم كل ذلك لم تثمر محاولاتى و تضحياتى تلك شيئا فى (كارثة) القمل التى أصبت بها فبقيت أشكو منها الأمرّين قبل أن تشكو مدام پرتيه و بطانتها!!

۱۹- ديسمبر ۱۸۸۱:

قمت اليوم بزيارة المقابر الواقعة على الضفة اليسرى من نهر دجلة قرب بغداد. و وجدتها منطقة واسعة تشغل مسافة كبيرة من الأراضى البور خارج هذه المدينة العظيمة. بيد أننى لم أجد فيها ما يلفت نظرى و يستحق أن يذكر كالمتنزهات مثلا الموجودة فى المقابر الأوروبية أو التشجير الذى يؤخذ به ليرفع عن زائر هذه الأماكن الوحشة و الكآبة المخيمتين عليها!

و لكن الذى أثارنى هو منظر السماء الصافية وروعة الشمس المشرقة و رأيتنى أقول مع نفسى: ليس من عجب إذن كما لم يكن عبثا و الشمس بهذه الروعة و الإشراق- أن تعتقد الشعوب الشرقية فى القديم بأنها رب الحياة و أن النور دليل الخير و علمه.

و على أى حال كانت هذه المقبرة أقل كآبة و حزنا من اسطنبول و موتى هذه المدينة! لا يحسون بالكآبة كما يحس أبناء اسطنبول!

و تقع أوسع مناطق هذه المقابر فى أطراف مقبرة أخى هارون الرشيد

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۰۴

و يتقدمها شارع فيه عدد كبير من النخل تحط فوقها طيور ملونة جميلة و تصوت أنغاما شجية تبعث على نشاط زوار مدينة الموتى و ترفع عنهم كآبة المكان و وحشته بعض الشىء بعد أن أبت السلطات التركية أن تعمل من جانبها أى شىء من هذا القبيل.

تنشأ قبور هذه المقابر بحسب جنس الميت إما مسطحة و إما محدبة و كلها مبنية بالطين و الآجر «الطابوق» أو بأشياء صلبة أخرى.

و عندما كنت أقف متفرجة على برج عظيم رمادى اللون يميل إلى الزرقة قليلا فى أرض معشوشبة صفراء يقع على بعد قليل منا كما أن منائر الكاظمين المذهبة تتراءى من بعيد .. عند ما كنت أتطلع على هذه المناظر الجذابة و أنقل بصرى بينها مأخوذة دهشة تعالت فجأة على مقربة منا الصيحات و العويل و البكاء، و نظرت و إذا جمع غفير من الأهلين يتقدمون بمظاهرة حزينة و هم يحملون تابوتا على أكتافهم لفوه بشال أخضر كبير و على مقدمته وضعوا ما يشبه التاج!!

و لقد علمت بعدئذ ان أحد أتقياء بغداد قد استدعى إلى الجنة- كما قيل لى- و بعد أن تمّت مراسيم الدفن و تفرّق الجمع الكبير

عادت الطيور إلى أوكارها تغرد عودا على بدء أنغامها الشجيّة التى قطعتها مظاهرة هؤلاء الآدميين الحزينة!!

و تركنا هذه المقابر أيضا و قصدنا بناية كان فيها عدد من القبب و هى تبدو كأنها أعلى من جدرانها بعض الشيء!! طرقنا بابها الحديدى الكبير و على الأثر فتح باب صغير و خرج منه حارس المكان و مد يده إلينا يطلب من كل واحد منا قرانا باسم الحلوان (البقشيش) .. أجابه مارسل بسرعة إلى سؤاله لأنه لا يمكن

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۰۵

الدخول فى هذا المكان و مشاهدة طرز بنائه بأقل من هذا المبلغ الزهيد لا سيما و هى مقبرة تاريخية، كما قال لى مارسل لرجل أوقف الشمس على ما تقول الروايات. و على الفور سمعنا قرقرة الباب الحديدى و رأينا أنفسنا فى صحن هذه المقبرة الصغيرة.

هذه المقبرة الخالية من جدث أى ميت أنشئت لحمل اسم جوزه و تخليده و على جوانب طاق الباب الذى دخلنا منه كانت عبارات عبرية كتبت على الطابوق بلون أخضر أو أصفر و بعد مرورنا منه واجهنا باب صغير و هنا كان يقف شخص آخر و طلب الحلوان (البقشيش) كذلك ؟!

و لا أدرى هل حسبونا «روشيلر» لكى يطلبوا منا الإنعام مرة بعد مرة.

إن طمع هؤلاء يفوق طمع خدم و حراس الكنائس الكبيرة فى أوروبا. و لم نر بدّا من إجابة طلب الخادم هذا، و فتح على الأثر الباب و دخلنا إلى القسم الداخلى من هذه المقبرة و لكننا تأسفنا كثيرا على أننا لم نجد هنا شيئا يستحق المشاهدة و حتى يستحق البقشيش الثانى. و كل الذى شاهدناه هو وجود صالون أنشئ من الجص ليس فيه أى فن أو جمال، و البناية عارية من كل تزويق و لم تكن مشاهدتها تسوى ثمانية فرنكات التى دفعناها لخدمها و لا نصف الساعة الذى أمضيناه فى الوصول إليها، و لقد خيل إلىّ أن حراس هذا المكان اتخذوا هذه المقبرة كمينا لسلب العابرين فرنكاتهم!!

و لكن على رغم ذلك لهذه المقبرة البسيطة منزلة جليلة فى نفوس اليهود لا- عند الذين يسكنون بغداد و أطرافها أو فى المناطق الشمالية من بلاد بين

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۰۶

النهرين فحسب، بل حتى لدى الذين هم فى الأصقاع البعيدة عن العراق فيأتون لزيارتها زرافات و وحدانا فى مواسم معينة خاصة من السنة.

و تدلنا كثرة الأبنية اليهودية المنشأة فى العراق كمقبرة يوشع و عزرا و حرية بنائها على ما تتمتع به هذه الطائفة من القدرة و على كثرة عددهم (؟)! فى هذه البلاد! و لا- أدرى أهؤلاء اليهود هم من أعقاب البابليين الذين هاجروا إلى هذه البلاد فى سنة (۱۰۳۰) بعد الميلاد أم هم الذين هاجروا إليها فى زمن الخلفاء (؟) لكى ينجوا من حقد وعداء الأمم الأوروبية و يكونوا فى مأمن من سطوتهم و عذابهم.

و على أى حال فاليهود فى هذه المدينة يتمتعون بقوة، و تكاد شؤونها التجارية و الاقتصادية تنحصر فى أفرادهم لذلك تكوّنت هذه الطائفة الثرية المتمولة فى البلاد.

يختلف حى اليهود عن الأحياء الإسلامية بشكل واضح بيّن فى الوهلة الأولى. فلمنازل الإسرائيليين شبابيك و مشارف ذوات سياج حديدى تطل على الأزقة، و تستطيع النسوة اليهوديات مشاهدة المارين خلالها، دون أن يستطيع هؤلاء مشاهدتهن.

و المرأة اليهودية على العموم منزوية فى البيت قلما تخرج إلى الخارج و هى لا تتبرج كثيرا، و تنحو نحو البساطة فى أمور التواليت و لكنهن فى المناسبات الخاصة يزين أيديهن مقبرة الست زبيدة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۰۷

و صدورهن بأسورة و قلائد ذهب نفيسة و جواهر ثمينة. و اليهود هنا يرغبون فى اقتناء الجواهر و المعادن النفيسة كثيرا إلى حد

الجنون، ذلك لأنهم يستطيعون أن يخفوا ثرواتهم وقت الحاجة أو حملها معهم عند الفرار!!

و زيادة على الخواتم و الأسورة و الأقراط المصنوعة من الألماس أى (البرلانت) أو المرصّعة بهما التى تتزين بها البنات اليهوديات فى الأعياد و المناسبات الخاصة، و كل منها يعد غاليا جدّا و نادر الوجود فقد سمعت الشيء الكثير عن القلائد ذات الأطواق الستة المصنوعة من اللؤلؤ الناصع الذى تتزين بها بنات الصيارفة اليهود المعروفين.

و على أى حال فأنت إذا استطعت الدخول فى مقبرة (يوشع) غير المهمة يدفع الحلوان (البقشيش)- كما فعلنا- أو بطريقة أخرى .. فلن تستطيع قط الدخول فى مقبرة زوج الخليفة هارون الرشيد «الخليفة العظيم الذى أرسل هيئة تحمل الهدايا إلى بلاط شارلمان» اللهم إلّا إذا كنت أحد الطيور التى تدخل فيها من خلال ثقوب قبتها المخروطية الشكل ..

و يغلب على الظن أن سبب إغلاق باب هذه المقبرة يعود إلى أمرين أحدهما احترام منزلة الست زبيدة التى كانت زوج الخليفة العظيم و عدم الإذن لكل من هب ودب للدخول إليها .. و الآخر المحافظة على المقبرة من تجاوز اللصوص و السراق عليها.

و من المعلوم أن قطاع الطرق كانوا يختبئون فى القديم بهذه المقبرة، و عند ما كانت القوافل تمر بهم فى طريقها إلى الحلة أو بغداد أو كربلاء، و لا سيما قوافل الزوار إلى العتبات المقدسة كانوا يهجمون عليها و يسلبونها و يقتلون من يقف فى طريقهم، و موظفو الترك على علمهم بهذه الأعمال ما كانوا يحركون ساكنا و لا يبدون أى عزم لتقليم أظفار هؤلاء الأشقياء و الشطار.

بل كانوا على العكس يتركون لهم الحرية فى القتل و السرقة كما يشاؤون.

و لقد سمعت من الكثيرين فى هذه البلاد أن هؤلاء الموظفين كانوا حماة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۰۸

اللصوص و المشجعين لهم فى حقيقة الأمر و واقعه ..

و لكن عند ما بلغ السيل الزبى و ضج الجميع بالشكوى من أعمال هؤلاء اللصوص الذين اتخذوا مقبرة الست مقرّا و كمينا، اضطرت سلطات الأمن إلى أن ترسل دورية صغيرة إلى هناك و تقبض على شخصين مجهولين يغلب على الظن أنهما لم يكونا من تلك العصبة المارقة .. و على أى حال فقد سيقا إلى المحاكم، و لكن عمليات السلب و النهب و القتل لم تنته، و عرف الجميع عندئذ أن سلطات الأمن متآمرة سرّا مع هؤلاء اللصوص و أخذت الألسن تلوك هذه الفضيحة بحيث لا تقبل الشك و الريب ..

و لما رأى الوالى أن القضية بلغت مبلغا خطرا و تطورت هذا التطور غير المنتظر وجد أن خير طريقة للخروج من هذا المأزق هو أن يجرد! حملة من عمال البناء ليقيموا حائطا عند مدخل باب المقبرة و يمنعوا دخول اللصوص أو الناس الطيبين؟!.

و بعد عدّة سنين أمر الوالى بفتح ثغرة مربعة فى حائط من حيطان المقبرة، و ذلك على حسب رجاء زهاد بغداد الذين رجوه لكى يستطيعوا أن يمدوا رؤوسهم خلالها و يشاهدوا ما فى داخلها كالجرذان تماما. و نحن أيضا قمنا بتلك العملية نفسها فمددنا رؤوسنا داخل المقبرة و شاهدنا ما كان فى المقدور مشاهدته بمثل تلك الطريقة!

يتكوّن بهو المقبرة من ثمانية أضلاع و يتلوها قبة مخروطية الشكل تزينها من الخارج بعض النقوش و المنخفضات و المرتفعات الحادثة من طرز وضع أحجارها. أما حيطانها الداخلية فبسيطة ليس فيها تزيين أو تزويق.

و لم تكن الست زبيدة وحدها ترقد فى هذا المكان الأبدى بل يقال إن زوج أحد شيوخ القبائل العربية الكبيرة تقاسم الأميرة العباسية هذا المكان الهادئ .. و تجد على القبرين قطعا من الآجر لم يراع فى وضعها و إنشائها أسلوب فنى جميل، كما يظهر أنها لم تكن منحوتة نحتا جيدا. و على أى حال

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۰۹

نقول يرحم اللّه هاتين السيدتين الجميلتين و ينزل عليهما شآبيب رحمته و عفوه.

و الواقع أن جمال منظر المقبرة من الخارج يخفى الشيء الكثير من سذاجة و قبح مرافقها الداخلية. و من المعلوم أن هذه المقبرة

انشئت بعد وفاة الست زبيدة بزمن طويل، لأن أسلوب بنائها يشبه إلى حد بعيد الأساليب المعمارية التى عرفت فى بدء القرن الثالث عشر فموزاييكها الذى بلون واحد و آجرها المنشأ به الطاقات البيضوية كل ذلك يشبه فن العمارة السلجوقية إلى حد كبير.

حريق بغداد .. الذى قطع الحركة التجارية ثلاثة أيام ..

۲۰ ديسمبر ۱۸۸۱:

حدث اليوم فى بغداد هرج و مرج شديدان، إذ التهمت النار البارحة «الليلة السابقة» السوق التجارى الكبير، و تعاون الجميع من تجار و كسبة و مختلف أفراد القوات الرسمية على إطفاء النيران الملتهبة.

و لقد قام الأهلون بطريقة مبتكرة تدل على ذكائهم دلالة واضحة فى سبيل إخماد لهب الحريق و صيانة بضئعهم و أموالهم من أيدى رجال الإطفائية و اللصوص و أفراد سلطات الأمن، و هى أنهم ما كادوا يرون النيران تقترب من محالهم التجارية حتى اتقوا سقوفها و هدموها إلى الداخل، و بذلك حافظوا عليها من النيران و من خان أرتمه

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۱۰

تجاوز الأفراد الآخرين. و هم بعد أن يخمدوا الحرائق يغلقون المنافذ، و على هذا الأساس يظهر للسوق منظر كئيب موحش. و لكن خلال يومين أو ثلاثة أيام عند ما تهمد النيران تماما و لا يخافون شيئا يعودون إلى دكاكينهم بغير اضطراب و لا قلق، و يبدأون برفع التراب عن بضائعهم، و فى مدة قليلة تتم هذه العملية و ترجع لتلك المحال سابق عهدها كما كانت تماما!

كان الحريق قد ابتدأ من أقدم أقسام السوق أى على مقربة من البناء العظيم و أقصد «خان أرتمه» و لو لم يقوموا بإطفاء النار لكانت هذه البناية التاريخية و التى تعد من أهم المراكز التجارية لبغداد الآن أثرا بعد عين!

و خان أرتمه عبارة عن بناء مستطيل الشكل له سقوف جميلة مهيبة تدل على فن معمارى عريق، و تزينه من الخارج بعض الأعمدة التى تكون بمثابة سند للحنايا الكبيرة الثقيلة، و هذه الأعمدة يفصل الواحد عن الآخر مسافة ثلاثة أمتار! أما الحنايا فعلى نوعين كبيرة و صغيرة و كل منها تتصل بالأخرى.

و على النوع الأخير بعض القبب المشبكة بحيث يكون للقسم المرتفع منها اتصال بالحنايا الكبيرة و ينفذ خلالها النور!

و فى نهاية هذا البناء الضخم جدار طويل متكوّن من طبقتين لهما سياج مشبك و هذا السياج يعمل على إضاءة الخان و تنويره!!

و فى القسم السفلى من الحنايا أيضا منافذ تمر خلالها أشعة الشمس و تساعد ذلك السياج و القبب الصغيرة المذكورة على التنوير. و الموزاييك ذو اللون الواحد الذى أنشئ به السقف و بعض المرافق الأخرى له منظر جميل جذاب يأخذ بألباب النظار، و لا سيما عند ما يسقط عليه نور الشمس الوهاج!

و أكثر أقسام هذا البناء روعة هو الإيوان الذى يحيط بجوانبه من الأعلى، الذى بذل مصممه جهدا جهيدا لإخراجه بهذه الروعة الأخاذة. و من البديهى أنه إذا أراد المعمار أن يزين أبنيته بقطع صغيرة من الآجر بشكل ظاهر فلا يكون فى مكنته أن يجعل من تلك التزيينات الظاهرة محكمة قوية، إلّا أن المعامير

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۱۱

الإيرانيين المتفننين ضربوا بسهم وافر فى هذا الميدان و تمكنوا من تحقيق ذلك فى الأبنية التى أنشأوها إلى أبعد حد، أمثال خلايا النحل و المقرنصات و ما شابهها!! و من الناس من يتصور أن الغرض من تلك المقرنصات ما يشبه خلايا النحل الظاهرة هى تزيين البناء فقط و أنها من خصائص الفن المعمارى العربى، فى حين أن ذلك من سمات الفن الإيرانى للعمارة و أن الإيرانيين يعملون ذلك للزينة و لإحكام الأبنية و تقويتها فى الوقت عينه. فهذه الخلايا التى فى بناء خان أرتمه لها علاقة وصلة بأقسامه و مرافقه الأخرى، أى

أنها لم توجد عبثا و لغرض الزينة حسب. فالمعمار الفنان استطاع بحذقه و طول باعه أن يوجد أمثال هذه الخلايا المتوالية و أن يصل بعضها ببعض بحنايا صغيرة. و بهذه الطريقة استطاع أن يوجد إيوانا مدورا يحيط بالبناية من مختلف جهاتها بعرض متر واحد و ثلاثين سنتيمترا و أن يضع أمامها سياجا خشبيّا جميلا و غير ثقيل كيلا يؤثر فى بقية أقسام البناية من حيث التوازن!!

و الآجر المستعمل فى بناء أعالى و مداخل هذا الخان يشبه الطابوق الذى أنشئت به مقبرة الست زبيدة، و هو من النوع الذى كان يستعمل فى بناء عمارات العهد السلجوقى فى إيران.

و لخان أرتمه درج عريض ينتهى إلى سطحه الذى يعد أعلى أقسام الأبنية التى فى بغداد اليوم. و من الجدير بالذكر هنا أن أمثال هذا الدرج قليلة الوجود فى الممالك الإسلامية لذلك يصبح لهذا الخان ميزة معمارية أخرى!

و الواقع أنه لم يكن خان أرتمه وحده هو الذى أنشأه المعامير الإيرانيون الفنانون فحسب، بل رأينا على مقربة من هذه البناية التاريخية العظيمة منارة جميلة ضخمة تسمى بمنارة سوق الغزل، فهى أيضا من آثار المهندسين الإيرانيين و لها خصائص و سمات الفن الإيرانى فى القرن الثانى عشر. و على مسافة أبعد توجد مدرسة عتيقة اتخذها الترك اليوم مخزنا للكمرك. و بناية هذه المدرسة جميلة جدّا و تزينها نقوش و كتابات كتبها خطاطون معروفون.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۱۲

منارة سوق الغزل

و الواقع أن الشخص يؤخذ بروعة تلك الكتابات و النقوش على سذاجتها!!

و النقطة الأخيرة التى أود أن أختم بها هذا البحث الآثارى هى أن أبنية بغداد العتيقة و آثارها التاريخية مع قيمتها الفنية تكاد تشكل متحفا يسهل على الباحث دراسة الفن المعمارى الإيرانى من العهد السلجوقى حتى الآن فيها- أى فى بغداد- من دراسته فى داخل بلاد إيران نفسها، ذلك لأن كل عهد من تلك العهود الإيرانية قد ترك أثرا من آثارها المعمارية فى بغداد، فى حين أنه لم يبق من تلك الآثار فى بلاد إيران نفسها التى تعد معين و مصدر هذه الفنون المعمارية بسبب أن العاصمة الإيرانية كانت تتغيّر بين فترة و أخرى بحسب تغير العائلات المالكة فيها و أنها كانت تنشأ عودا على بدء، لذلك لا يمكننا أن نرى فى مدينة واحدة الأساليب الفنية المختلفة للعمارة الإيرانية كما هى عليه فى بغداد مثلا!

عند نزولنا من سطح خان أرتمه رأيت عددا من بائعى السجاد من الترك و الإيرانيين و حاولت أن أقتنى أنواعا جيدة منها، و لكنى لم أجد فى كل ما عرض علىّ هى بغيتى إذ كانت جميعها ذات ألوان باهتة أو خشنة مما يعرف بسجاد فراهان أو الأزميرى!!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۱۳

منظر بغداد من فوق خان ارتمه

و لقد رأيت بجانب السجاد من المعروضات فى المحال التجارية أقمشة حريرية من صنع دمشق، و أخرى من الململ و قد زينت حواشيها بالحرير و ملاءات مذهبة الأكتاف يرتديها الرجال، و عباءات نسوية بألوان مختلفة و حاجات نسوية أخرى كالأحذية المزينة بالأزهار و ما شابه ذلك .. كما أنى وجدت بين تلك البضائع أدوات حربية من الأنواع التى تستعمل فى البلاد الشرقية و هى بحالة جيدة. أى لم تكن من التحف الثمينة .. و لا تستطيع أن تجد أسلحة عتيقة أو أقمشة مذهبة تاريخية هنا فى بغداد و لكنك تستطيع أن تجدها فى مدينتى كاشان و أصفهان من أعمال إيران و فى اسطنبول.

لن تجد فى بغداد غير البضائع المعتادة و لن ترى من البائع البغدادى غير الانفعال السريع و الحدة و الخشونة إذا لم تشتر منه شيئا!!

أما صنائع بغداد البلدية فلا تستطيع أن تشترى منها شيئا ما لم توص عليه سلفا لدى الصانع، و تسلفه بعض قيمته كما هو الحال فى إيران. و تكلف أمثال

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۱۴

هذه المعاملات الزوار و السياح كثيرا من المشاق و المتاعب بل فى أكثر الأحيان تحرمهم اقتناء قسم من المصنوعات البلدية باسم الذكرى من هذه البلاد، إذ إنهم يسافرون فى أيام معينة خاصة و كثيرا ما يخلف هؤلاء الصناع مواعيدهم فيتسبب عن ذلك كثير من المشاجرات و المنازعات لا بالنسبة لهؤلاء السياح الأجانب فحسب، بل حتى للأهلين.

و لقد أرتنى مدام پرتيه عددا من الستائر المذهبة التى أوصت بصنعها و أسلفت الحائك بعض ثمنه مقدما و مع ذلك لم تكن جميعها باللون الذى أرادته و بالشكل الذى أوصت به .. و لقد سألتها عن علّة ذلك فأجابتنى بقولها:

إننى أول وصولى إلى بغداد طلبت من «حاجى بابا» أشهر النساجين فى المدينة أن ينسج لى عددا من الستائر بلون و بحجم واحد و على حسب الأصول المرعية فى هذا الشأن، أسلفته نصف أثمانها على أن أعطيه النصف الآخر عند ما يبدأ بإتمام النصف الثانى من تلك الستائر بعد إبدائى رضاى عنها، و بعد شهرين جاءنى حاجى بابا و دعانى إلى محله لمشاهدة الستائر التى أنجز النصف الأول منها و لقد لبيت دعوته و ذهبت إلى معمله و أبديت رضائى و أعطيته النصف الثانى من أثمانها و رجعت إلى منزلى و أنا فرحة جذلة.

و بعد ستة أشهر جاء حاجى بابا مع عماله إلى بيتنا و هم يحملون الستائر الكاملة و ما إن فتحوها بحضرتى حتى رأيتها جميعا ذات لونين مختلفين بشكل منفر!!

و بعد أن أنّبت حاجى بابا ولمته على فعلته هذه أجابنى بقوله: «إنك أعطيتنى أثمانها على دفعتين لذلك اضطررت أن أصبغ الحرير مرتين و إذا كان اللون مختلفا فى الستارة الواحدة فالذنب ذنبك لا ذنبى فلو كنت قد أخذت المبلغ منك مرة واحدة لصبغت الحرير كله جملة و لما تباين لونها هذا التباين الذى أنت مسؤولة عنه و لست أنا»؟!

و بعد أن انتهى من كلامه هذا ترك الستائر و خرج مغضبا. و إننى لم أجد بدّا من قبولها على علاتها لأننى كنت قد دفعت أثمانها سلفا .. هذا هو حال المعاملات هنا و عليك التقدير؟!

لا تستطيع أن ترد علّة المعاملات على هذه الطريقة البدائية إلى عدم

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۱۵

وجود رأس المال عند الصناع، ذلك لأن فى بغداد عدد كبير من الصيارفة و ذوى رؤوس الأموال الكبيرة و هم على استعداد أن يمدوا هؤلاء الصناع بالمال. يضاف إلى ذلك أن لأفراد هذه الطبقة امتيازات خاصة بهم منها أن الحكومة لا ترهقهم برسوم و ضرائب كثيرة و ذلك لتشجيعهم و الأخذ بيد الصناعة البلدية، ثم إنها لا تطلب منهم شهادات و شروطا معينة لكى يقوموا بصناعاتهم تلك أو فتحهم معاملهم سواء فى ذلك الكبيرة و الصغيرة. و كل الذى تأخذه الحكومة هو رسوم يسيرة على تلك المصنوعات فى حالة إصدارها إلى الخارج فقط. و حتى هذه الرسوم الزهيدة من الممكن تداركها و تقليلها بعد الاتفاق مع موظفى الكمرك فهم يبدون مساعدة فى مثل هذه الأمور التى تتم بمنفعتهم الخاصة و تزيد من ثرائهم الفاحش غير المشروع؟!!

و أعتقد أن علّة استسلاف هؤلاء الصناع أثمان المصنوعات هى أولا للتصرّف بها كما يشاؤون و تأخير إنجاز ما أوصوا بصنعه ما استطاعوا ذلك فيفيدون بذلك من المال و الوقت معا و ثانيا لأن الصناع يخافون أن يستغنى المشترى عما أوصى به بعد إتمام العمل أو يتعنت فى قبول البضاعة و ينتحل بعض المآخذ عليها!!

لهذه الأمور نرى العمال و الصناع يفضلون أمثال هذه الأساليب فى المعاملات التجارية و السوقية على ما سواها و إن كان فى ذلك الضرر و الغبن للطرف الآخر!

و مما يلفت النظر فى أسواق هذه المدينة المملوءة بالبضائع الثمينة على اختلاف أنواعها عدم ازدحام المشترين و العابرين و برودة الحركة التجارية، و ذلك لأن البضائع الثمينة و الأشياء النفيسة يحملها الدلالون إلى منازل الشارين و فى بعض الأحيان يحملها أصحابها أنفسهم إلى المحتاجين إليها أو الذين يتوسمون فيهم تصريف تلك البضائع عليهم. و يمكننا أن نستثنى من هذه الأسواق، تلك التى تعرض الأقمشة القطنية الانجليزية أو البضائع الروسية، فإنك ترى فيها عددا كبيرا من الناس فى حركة دائبة، و ترى أمام

تلك الدكاكين النساء القرويات و قد عرضن أمامهم اللبن و الدجاج و البيض التى جلبنها من

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۱۶

ديارهن القرويـة القريبـة. و إذا تأملتهن رأيتهن يـدمجن بضائع الزينـة النسويـة المعروضـة فى تلك الـدكاكين كالأساور و الأقراط و ما سواها بكثير من الدهش و التمنى و الرغبة.

و هاته النسوة يسـرن فى الشوارع سافرات الوجوه لا يحجبها شـىء سوى (المقنعة) السوداء الصوفية التى تحيط برؤوسـهن و يضم قسـما من جبينهن و ذلك على ما أعتقد- لكى يكون حجابهن رمزيّا و تشبها بالنساء البغداديات إلى حد ما!

و تسـتطيع أن ترى من قرب وجوه و أجسام هذه النساء بكل وضوح على خلاف من سواهن من نساء هذه البلاد، و لكن الشىء الجدير بالـذكر هو أنك لا تجد فيهن سـمات الجمال و الجاذبية التى وجدتها فى نساء قبائل الفيلية العربية . و أعتقد أن مردّ ذلك هو الأعمال الشاقـة و المسؤوليات الضـخمة التى ألقيت على عواتق هـذه النساء القرويات اللاتى يأخـذن فى العمل سـحابة نهارهن و طرفا من الليل حتى أودى ذلك بصحتهن و امتص رونق الجمال من أوجههن السمر.

و لعلك تسأل- بعدئذ- عن وظائف أو بالأحرى عن أعمال رجال هذه القرى فأقول لك إنها تنحصـر فى الصـيد أو الغارة و السرقة من مزارع و حقول الآخرين؟!!

و الخلاصة .. إن رحلتى فى عاصمة الخلفاء و أعنى بغداد قد انتهت بزيارة الميادين الواسعة التى تباع فيها الحبوب. و فى اعتقادى ليس ثمـة منظر أبهى و أجمـل من تلك الميادين التى تشـبع كل يوم الآلاف من أصـحاب البطون الخاويـة. إذ تطالعك مشاهـد جذابـة من أكوام تلك المزروعات فى تلك الميادين و الناس فى ذهاب و إياب بعد أن أخذوا حاجاتهم منها.

.. و الواقع أن لهذه الميادين مناظر جذابة رائعة و لا سـيما عند بزوغ الشـمس ففى هذا الوقت يشـتد ازدحام الناس للشراء و البيع هناك حتى يضطر

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۱۷

الإنسان الذى يعبر خلال تلك الأسواق أن يستعمل العصا فى عبوره و فى شق الطريق له.

إن من يعتاد أكلات أهالى بغداد لا يجد فى تهيئة غذائه صـعوبات مادية إذ يستطيع أن يشترى الدجاج المنزلى و أنواع الطيور الأخرى بأسـعار زهيـدة جـدّا. و الخروف الجيـد لا- يزيـد ثمنه على سـتة فرنكـات. و الأسـماك كثيرة و مبتذلـة لدرجـة تـدعو إلى الدهشـة، و الخضـراوات و الفواكه أمثال البطيـخ و الرقى التى تجلب من المناطق العليا من بلاد بين النهرين كثيرة بحيث تملأ الخانات أكواما فوق أكوام حتى أنها تكاد تشكّل هضابا و لا تستطيع بسهولة أن تعبر بينها.

و أحجام الزوارق التى تحمل هذه الفواكه و الخضراوات لا تقاس طبعا بأحجام الزوارق المعروفة لدينا فى أوروبا ..

و من الطبيعى أنه ينبغى أن ننظر بدهشة و إكبار لهؤلاء الناس الذين قبل أن يحل الغروب تسـتوعب أجوافهم كل هذه الكميات الكبيرة من الفواكه و الخضروات. أما أنا إذا ضعت و لم أستطع أن أجد محلى فلا أرضى بأى حال من الأحوال أن أعيش فى هذه الناحية التى تتميّز بكثرة نعمتهـا و بثروتهـا، اللهمّ إلّا إذا طهرت من الموظفين التركـ و مخاطر مرض الطاعون و «الأخت البغداديـة» و لا يفوتنى أن أقول إن البلاءين الأخيرين عندى هما أسهل تحملا- أى الطاعون و الأخت البغدادية- من وجود الموظفين التركـ؟!

۲۱ ديسمبر ۱۸۸۱:

صرفنـا النظر عن زيارة قصور سارجن و سـنحاريب التى تبعـد كثيرا عن بغـداد و لكنا لا نسـتطيع بحال أن نصـرف النظر عن زيارة برج بابل و حيطان هذه المدينة العظيمة و حدائقها المعلقة التى نسمع عنها منذ طفولتنا الأولى فتثير اهتمامنا و شغفنا.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۱۸

قفف مملوءة من البطيخ و الرقى (البطيخ الأحمر)

و على نفورنا من الموظفين الترك الرسميين قد استعنا اليوم صباحا بهم لزيارة تلك الأماكن التاريخية، فكان أن أرسلوا معنا أربعة من رجال الأمن لحمايتنا و تسهيل أمرنا فى هذه الزيارة التى أزمعنا القيام بها، و كان الوالى قد اختار هؤلاء الرجال الأربعة هو بنفسه. و لقد امتطيت أنا صهوة جواد هزيل ضعيف البنية خضب صاحبه جبهته و أطرافه بالحناء لكيلا تصيبه العين، و لا يصيبه مكروه من الجان .. و بعد أن عبرنا جسرا أنشئ من زوارق عائمة قديمة سرنا فى طريق بابل ميممين وجوهنا إليها ..

و لو أن الأطفال السائبين فى الأزقة لم يقفوا فى وجوهنا و يسمعوننا الألفاظ القارصة و يهينوننا و يسخرون منا فى طريق مرورنا بأزقة المدينة، لكان يخيّل إلىّ أننى فى جيش محجل عظيم على رغم قلّة عددنا ..

و لقد كان رجال الأمن الأربعة الذين رافقونا فى سفرتنا هذه يرتدون ملاءات جيدة على خلاف العادة و على رؤوسهم الأغطية الرسمية و على أكتافهم

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۱۹

قطعة حجرية تبيّن عبور نهر دجلة فى الزمن الغابر

بنادق من نوع (Sindr) سيندر التى كانوا يطلقون منها بين حين و آخر طلقات تلعلع فى الأجواء على عادة فرسان العرب فى إظهار فرحهم و سرورهم فى حادث من الحوادث المبهجة. و كان من المقرّر أن يرافقنا ضابط خدم فى جيش الهند مدة أيضا و لقد انتظرناه بعض الوقت بجانب مقبرة الست زبيدة و لكن انتظارنا طال كثيرا و لم يأت، و ليأسنا من مجيئه تركناه و ذهبنا.

و فى البدء عبرنا صحراء جميلة زاهية كانت قد زرعت بالحنطة و كثرت فيها المساقى و السواقى و ما كدنا نبعد عن هذه الأراضى حتى وصلنا إلى ضفاف نهر دجلة مرة أخرى و عبرناه خلال جسر عائم آخر و كان يتميّز بجماله و دقة صنعه. و فى الطريق شاهدنا سيارة كانت تعمل فى هذا الطريق بين المدينتين و لكنها الآن معطبة و متروكة على جانب الطريق. و هذه نتيجة حتمية طبعا لطرز أفكار الترك الجنونية التى لا تسعى إلى تعبيد الطرق و إقامة الجسور المتينة الصالحة و عدم وجود الفحم الحجرى، فلا غرو إذن أن تعطب و تترك

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۲۰

أمثال هذه السيارات و أن يحرم بالتالى الأهلون من وسائل النقل الحديثة!!

أجل من الطبيعى أن تستطيع هذه السيارة السير فى شوارع أوروبا المعبدة السليمة و أن تؤدى فوائد جزيلة للشعب، و لكن الأمر هنا يختلف فالموظفون العثمانيون لا يجشمون أنفسهم للترفيه عن الأهلين و تيسير وسائل العيش لهم بل و لا يكلفون أنفسهم حتى مجرد التفكير فى ذلك!!

و من المعلوم أن هذه السيارة كلفت خزانة الدولة العثمانية كثيرا و لكنها الآن متروكة فى هذا المكان المقفر المملوء بالطين و الأوحال و إننا لا نعجب فى ذلك إذا عرفنا أن الموظفين الترك الشرفاء كانوا يتقاضون رواتبهم من الفوائد التى تدرها من غير أن يفكروا فى أمر إصلاحها أو المحافظة عليها و صرف أى مبلغ فى هذا الشأن، إذ إنها لم تكن تكفى رواتبهم هم فكيف يصرفون عليها و لو مبلغا صغيرا!! كما هو حالهم فى الأمور العامة الأخرى؟! و من هنا تستطيع تقدير التسيب الذى يسود حياة هذه البلاد المسكينة.

و عند عبورنا الجسر المقدم الذكر استقبلتنا صحراء واسعة ليس فيها من زرع و لا ضرع اللهم إلّا آثارا لمجارى المياه المندثرة التى كانت تسقى هذه المنطقة الزراعية المهمة. أما الآن فهى ليس أكثر من صحراء قاحلة تشاهد فيها السدود و السكور المخربة المرتفعة و المجارى المندثرة هنا و هناك!!

و يرجع تاريخ هدم هذه السدود و السكور و اندثار هذه المجارى إلى أزمان بعيدة إذ إن هردوت المؤرخ القديم المعروف يقول: إن هذه المنطقة كانت تعد من أخصب مناطق إيران. و كذلك أقوال رجال الجغرافية الذين عاشوا فى القرن الثانى عشر أيضا. إن ابن

جبير يقول: «إن الطريق الذى يصل الحلة ببابل يقع فى منطقة زراعية مهمة تدر محاصيل فاخرة كثيرة. و فى هذه المناطق تجد أبنية تتصل الواحدة بالأخرى كما أن مدنا كبيرة متعددة تقع على جوانب هذا الطريق».

و هكذا يبدو أن الجهلة فى مدة قليلة حولوا هذه المنطقة الثرية التى كانت تدر كل تلك الثروات الطائلة الخيالية إلى أراضى بور معدومة ليس فيها زرع و لا ضرع!!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۲۱

و بالخلاصة ما كدنا ننتهى من حديثنا عن ماضى هذه المناطق و ما ذكر عنها فى التوراة و ما قال فيها الأنبياء و المؤرخون القدامى حتى وجدنا أنفسنا قد بلغنا عددا من أكواخ الفقراء القذرة فى جوارها خان يستقبل المسافرين للراحة و الاستجمام! فهبطنا عنده و تركنا جيادنا و ترجلنا، و لفت نظرنا هناك دكان صغير وضع صاحبه بإزائه عدة سلال من التمر عرضها للبيع كما رأينا على الجانب الآخر من الخان مقهى صغيرا فدخلناه توّا لنستريح و ندفع عن أنفسنا ما تحملناه من وعثاء الطريق، و باحتساء فنجان من القهوة تحركت شهوتنا للطعام و كان أن أسكتنا عصافير جوعنا بما كنا نحمل معنا من دجاج مقلى محمّص لذيذ؟!

و بعد قليل من الاستراحة رأينا عن كثب قافلة تتقدم بتثاقل، و كانت بضع دواب تحمل أثاثا و بيوتا من الشعر أو خيما على ما أعتقد؟! و فى هذه الأثناء قدم صاحبنا الضابط الذى كنا قد انتظرناه مدة طويلة فى الصباح و أقرأنا السلام فدهشنا لقدومه بقدر ما سررنا فى تلك الساعة.

كان يرتدى اللباس العسكرى الإنكليزى الذى كان يلبسه أيام خدمته فى الجيش الهندى، و كانت على رأسه طاقية حمراء جميلة ذات حاشية بلون أزرق تحف بها من جميع الجوانب، و كانت هذه الطاقية الغريبة تنتهى من الخلف بعمامة تشبه إلى حد بعيد العمات التى يرتديها الهنود، التى تتدلى منها عذبات إلى وراء.

و كان صاحبنا هذا يدعى الكولونيل جيرارد (Gerard) و هو من أصل فرنسى پروتستنتى. و كان أهلوه قد نفوا من فرنسا نتيجة إلغاء قانون نانت (Nantee) و هو اليوم يقوم بسياحة حول الأرض و منها بلاد ما بين النهرين و كما قال لنا إن تأخره كان خارج إرادته، و لم يكن برغبته و سببه هو أنه قبل يوم كان قد اشترى مهرا لجواد أصيل قرب طيسفون (سلمان پاك) و فى أثناء هبوب

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۲۲

ريح صرصر باردة و وصوله إلى جسر من القوارب العائمة خاف أن يعبره لئلا يسقط فى النهر عن مهره الذى كان يبدو شموسا بعض الشىء. لذلك فضّل العودة إلى دار القنصلية ليكرى جوادا يأمن جانبه! و الواقع أن عبور هذا الجسر ليس بالأمر الهين الخالى من المخاطر و المشاق، لذا تصف الدواب الواحد بعد الآخر و تجتاز الجسر على هذا الشكل لئلا تتدافع و يحدث ما يكره حدوثه.

و يجتاز الذين يعتقدون أحكام القضاء و القدر فقط هذا الجسر بغير حذر و لا خوف، و فى الوقت الذى كان الكولونيل يحدثنا ما حدث له رأينا عن كثب هبوب غبار سرعان ما انجلى عن قدوم فارسين آخرين يملأ أوجههما الدم و على أجسادهما ملابس رثة قذرة، و هما يحملان على كتفيهما أسلحة عتيقة.

و الخلاصة أن منظر هذين الفارسين كان يبعث على القرف و الاشمئزاز و ينفر منه كل راء حتى الشيطان موليا وجهه الأدبار؟!

وقف هذان الفارسان إزاء دكان بائع التمر و أخذا فى الحديث مع رجال الأمن الذين كانوا فى رفقتنا. و لقد ركبنى الهم كثيرا بمجرد أن فكرت فى أن هذين الشخصين المزعجين سيكونان فى معيتنا بالطريق. و من الطبيعى أنه لم يكن معنا مبلغ كبير لكى نخاف عليه، و لكن حتى هذا المبلغ الزهيد الذى نحمله معنا لو سرقاه منا نقع فى بلاء عظيم و كرب شديد بعد أن كنا قد ابتعدنا عن المدينة و العمران!؟

و فى هذه الأثناء تقدّم رئيس هؤلاء الرجال منا فقال لى: أرى من المستحسن أن أقدم إليك هذين الفارسين اللذين سيكونان فى رفقتكم من الآن فصاعدا؟ .. قلت له على الفور: «أولم يكف وجودكم أنتم للمحافظة علينا حتى يكون معنا هذان الفارسان».

الموضوع الـذى ينبغى أن أذكره لـك هو أنه بحسب رجاء القنصل قـد جعلنا معكم رجالا مقبولى الوجه و الهنـدام منـذ خروجكم من المدينـة حتى الآن كيلا نخل بجلال منظركم و عظمة موكبكم عند الأهلين، أما من الآن فصاعدا فلا يكون بمعيتكم إلّا هذان الفارسان اللذان وصلا هذه اللحظة، أما نحن فانتهت مهمتنا هاهنا اللهم إلّا أن نسلم عليكم السلام الأخير و نيمم وجوهنا

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۲۳

إلى المعسـكر فى بغـداد، لأـنه ليس من الممكن أن يرافقكم أمثالنـا من رجـال الأـمن المتميزين الـذين عليهم الملابس الجيـدة و لهم الجياد الأصـيلة الفارهة فى طريق القوافل المتربة هذه. و من البديهى أيضا أن تنقدونا الحلوان «البقشـيش» قبل عودتنا، لأننا حرقنا بارود الحكومـة و اتسـخت ملابسـنا (؟) بغبار الطريق و ترابه و ندعو أن يكلأكم اللّه بعنايته و رعايته» و هنا رفع يديه إلى أعلى و قال الجملة الأخيرة بترنيم و تنغيم خاص؟!

و لقـد تركنـا هؤلاء الرجال بعـد أن أخـذوا الحلوان «البقشـيش» لكى يتخلصوا من التراب و الغبار و هجوم الـذباب عليهم .. تركونا فى حماية هذين الشخصـين اللذين يشـبهان اللصوص و القراصـنة إلى حد بعيد مدّة هذه السفرة التى قد تطول أو تقصر: علينا أن نشركهم فى غذائنا و أن نجالسهم و نحادثهم، و أدهى من كل ذلك أن نعطيهم مقابل ذلك مبلغا من المال؟!

و فحوى القول أننا بـدأنا بالحركـة و سـرنا يوما كاملا فى أراض قاحلـة ليس فيها إلّا عدّة من المجارى المندثرة المخربة للمياه و سوى بعض القطع من الحجارة و الآجر المبعثرة فى الطريق و بقايا آثار من المدن القديمة البائدة التى كنا نطويها تحت حوافر جيادنا؟!

و عنـد حوالى الغروب ظهرت على الأـفق بنايـة كبيرة من الآـجر و هى خـان كبير شـيّده الإيرانيون بجهودهم و فلوسـهم فيه بضع حجر واسعة معدّة لاستراحة زوار العتبات المقدسة من الشيعة. و هذا الخان يناظره خانات إيران التى شاهدتها لدرجة كبيرة إذ تحيط بصحنها الحجر من جميع الجوانب التى يتقـدم كلّا منها إيوان واسع. و المسافرون عادة- عنـد ما يكون الجو لطيفا ينزلون فى هذا الإيوان و عند برودة الطقس يـأوون إلى الحجر و يجعلون دوابهم و حيوانـاتهم الأـخرى فى الاصـطبل المقابـل لهم لكى تكون على مرأى منهم على الدوام مخافة سرقتها!

و لما كان الجو باردا لم نر بدّا من اختيار إحدى تلك الحجر للنزول فيها و لكننا ما كدنا نترجل عن جيادنا حتى علت إلى أنوفنا عفونة أوشـكت أن تزكمها، و لفتت نظرى أشـياء مركومـة بعضـها فوق بعض فتقدمت منها أتفحصـها و ما كدت أمد يدى حتى ارتدت إلىّ كأنه قد مسها تيار كهربائى و اضطربت أشد

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۲۴

الاضـطراب. كانت هذه الأشـياء المحزمة المركومة جثث موتى بعضها قد لفت فى بساط أو سجاد و حزمت بحبال و بعضها فى توابيت خشبية يبدو من بين شقوقها اللحم الجامد المسود لهؤلاء الموتى.

على أثر هذا خرجنا سريعا تاركين هذا الخان الغريب و نزلنا فى محل يبعد عنه كثيرا لنقضى فيه ليلتنا، و خرج الكولونيل أيضا و اضطر أن يقضـى ليلته معنا فى الهواء البارد. و على رغم ابتعادنا عن الخان بمسافـة ليست قليلـة كانت رائحة العفونة تضايقنا كلما هب النسـيم من جـانبه .. و الواقع أن دفن الموتى بجوار أضـرحة مراقـد الأئمـة أصـبح عـادة لفريق من المسـلمين منـذ أوائل عهـد الإسـلام أى بعد استشهاد الإمام الحسين فى كربلاء .. و اليوم يجلب أكثر أفراد الطائفة الشيعية جثث موتاهم من أبعد المناطق كالهند و إيران إلى مدينة كربلاء و النجف لدفنها قرب مراقد هؤلاء الأئمة الذين ينزلونهم من نفوسهم منزلة التقديس.

قافلة حمل الجنائز

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۲۵

و فى عقيدة الشـيعة أن نبى الإسلام كان قد اختار لخلافته قبيل انتقاله إلى الملأ الأعلى ابن عمه و صهره على بن أبى طالب الذى كان أسـبق المسـلمين إلى اعتناق الـدين الجديـد و الـدفاع عنه، و من أخلص رجالات العرب و أشـجعهم فى بدء الدعوة الإسـلامية، إلّا أن

المسلمين لم يحترموا و لم ينفذوا وصية النبى صلى اللّه عليه و سلّم بعد انتقاله إذ انتخبوا أبا بكر و عمر و عثمان خلفاء من بعده. و لكنه أخيرا و بعد موت عثمان سنة ۶۵۶ م تسنم الخلافة و هو فى شيخوخته و بلوغه عتيا من السن .

بيد أن مدعى الخلافة عادوا للمطالبة بها بعد موت على و لم يتورعوا من استعمال السلاح فى الوصول إلى طلبتهم و كان أن قتلوا بنيه الحسن و الحسين، الأول فى المدينة و الثانى فى كربلاء و الأراضى التى اصطبغت بدمائهما قد أصبحت- بنتيجة ذلك- مقدسة عندهم يتبرك بها أفراد الطائفة الشيعية و من هنا وقع الخلاف و تضخم الحقد بين السنة و الشيعة. و لو عنّ لنا أن نسأل:

يا ترى مع من الحق؟ أمع الطائفة الأولى أم الثانية و عقيدة أى منهما هى الصادقة؟ ينبغى لنا أن نتجرّد من العاطفة و نحكم عقلنا فى هذا الأمر ..

و الواقع أننا لا نحتاج إلى الاستعانة بأصول الفلسفة أو علوم ما وراء الطبيعة للإجابة عمّا تقدّم بل سرعان ما يظهر لنا أن الحق كان مع على و أولاده و أول دليل على هذا هو ما ذكره القرآن الكريم من العناية بأفراد عائلة النبى و ما خصّهم به من حقوق فى أموال المسلمين و الغنائم الحربية و الأسلاب التى يجب صرفها للمحافظة على أعقابه و الترفيه عنهم ..

على هذا الأساس كيف يمكن أن يرجح النبى شخصا غير على الذى كان من المقربين إليه و ابن عمه و صهره .. كيف يمكن أن يفضل عليه شخصا غريبا ؟

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۲۶

و من الطبيعى أنه لا يمكن أن يرث مقام الخلافة غير على كما لم يكن باستطاعة النبى أن يورثها أحدا سواه لأنه لم يكن له منافس أو مشابه فى زهده و تقواه و شجاعته و إخلاصه و ذكائه.

و الحق أن هذه المسألة واضحة جلية لا تحتاج إلى نقاش أو جدال.

لذلك أرانى أحترم الإيرانيين و أجلهم، لأنهم يؤمنون بحق على فى الخلافة، و يعدونه زعيمهم الأكبر و مثالهم المقدس، كما أنهم ينزلون أولاده من أنفسهم منزلة التمجيد و الحب، حتى أنهم يعدون زيارة مراقدهم فى العتبات المقدسة فى بلاد ما بين النهرين فريضة و واجبا عليهم كما هو الحال عند فريق الهنود الذين يكابدون مشاق و متاعب فى زيارة تلك الأماكن المقدسة أيضا؟!

۲۲ ديسمبر ۱۸۸۱:

أفقنا فى الصباح الباكر على جلجلة أصوات القوافل التى خرجت من الخان و حسبت أنه من المستحسن أن نسبق قافلة جثث الأموات و نجعل بيننا مسافة طويلة، إلّا أننا لم نستطع أن نحقق هذه الرغبة لأننا على طول الطريق كنا نشاهد قوافل من هذا القبيل تحمل توابيت الموتى التى تشبع الجو بعفونة تكاد تزكم الأنوف.

و عند الظهر بلغنا خان الإسكندرية التى كانت دون الخان السابقة بناء و استحكاما و جمالا، بيد أنها كانت ذات حركة دائبة، و كان عدد الأشخاص يبدو فيها أكثر ممن هناك؟! ذلك لأن هذه المدينة تقع على تقاطع طريقين إحداهما تذهب إلى مدينة كربلاء و الأخرى نحو الحلة. و ها نحن أولاء الآن لا نكاد نبعد عن عاصمة نيتكريس المشهورة و سميراميس الخرافية أكثر من أربع ساعات؟!

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۲۷

خان استراحة القوافل فى كربلاء

۲۳ ديسمبر:

أنا الآن فى مدينة بابل التى تبدلت اليوم إلى صحراء قاحلة ليس فيها زرع و لا نبات بعد أن كانت أكبر المدن القديمة و تعد مركز المدنية و الحضارة فى الأزمان السحيقة.

الساعة تشير إلى الثانية الزوالية و مع ذلك أظلمت الدنيا فجأة و هبت أعاصير من التراب و الغبار و أحاطت بنا من كل جانب بحيث لم نعد نشعر بأنفسنا و خيل إلينا أن قد ضعنا فى هذا الطوفان الترابى.

و فى هذه الأثناء لعلع الرعد فى السماء و تلألأ البرق و بدأ الغيث يهطل مدرارا، حتى داخلنا الخوف و الهلع. و كانت هذه المرة الأولى بعد شهر مارس التى يحدث فيها مثل هذا الحدث لنا من هطول هذه الأمطار الغزيرة.

و على أى حال أبدت السماء فى هذا اليوم كرما و سخاء كما أبدت عطفا علينا إذ سرعان ما انقطع المطر و وضعت بين أيدينا العاصمة القديمة. و فى الوقت

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۲۸

خرائب بابل مراعى للأغنام

الذى كانت قطرات المطر تتساقط من ملابسنا كنا نسير فوق أعالى هذه المدينة بيد أن الادلاء الذين كانوا معنا قد تركونا منفردين فى الشارع الرئيس إلى طرق أقصر، ليصلوا قبلنا إلى موضع الآثار القديمة.

و من حسن الحظ أنه ما كدنا نسير عدّة خطوات حتى ظهر أمامنا تل مملوء من قطع القار و على كل جانب منه خندق عميق، و بعد برهة قصيرة بلغنا الطريق الموصل إلى قلب تلك المواضع التاريخية و نحن فى حالة يرثى لها من التعب و ملابسنا مبتلة بماء المطر و فى هذه الأثناء وجدنا أنفسنا أمام كوخ لأحد الحفارين المحليين الذين اختار ذلك الموضع محل إقامة و سكنى له.

مضت عدّة سنوات على إجراء انكلترا تنقيبات واسعة فى أرض عاصمة بختنصر هذه و أن أحد موظفى متحف بريطانيا يقدم إلى هذا المكان كل عام

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۲۹

من لندن ليصدر تعليماته الجديدة من أجل استدامة التنقيبات و ما تحتاج إليه من مبالغ. و مدير عمليات التنقيبات هذه رجل أرمنى عينته البعثة الأثرية الإنكليزية و هو الذى أخذنا الأدلاء إليه و أرانا هذا ما استكشفوه من آثار جديدة.

و من الأشياء التى شهدناها هنا ألواح من الحجر كثيرة كانت قد كتب عليها بخط مسمارى. و أنها- على ما قاله هذا الرجل الأرمنى- قد اكتشفت منذ ما يقرب من ستة أشهر فقط. كما أننا رأينا أشياء صغيرة صنعت من القار على شكل حيوانات، و من الممكن أنها كانت تقدم للأطفال عيدية أيام العيد.

و هذه الأشياء عتيقة حتى يخيّل إلى المرء أنها من عهد طوفان نوح. و رأينا أيضا أوانى كبيرة ذات لون أحمر غامق و تماثيل صغيرة صنعت من الطين ثم فخّرت على النار تشبه إلى حد بعيد الأساليب اليونانية القديمة.

و فى الوقت الذى كنا نتفرج فيه على هذه الأشياء القديمة الثمينة كان الجو قد أخذ فى التحسن، و الهواء قد لطف و لما لم يكن معنا غذاء اضطررنا إلى أن نيمم وجهنا إلى مدينة الحلة فهى لا تبعد كثيرا عن هذا، و نترك أطلال هذه المدينة القديمة و لكننا لم نكد نبتعد عنها حتى أخذنا نسير فى طريق جميل انتصب على جانبيه النخل بشكل جذاب؟!

كانت الطبيعة جميلة جدّا بعد هطول تلك الأمطار فأوراق و أغصان الأشجار نضرة مزدهرة تعلقت بأطرافها قطرات الغيث كأنها قطع الألماس اللماعة و الأطيار تنشد و تغنى و هى تتنقل من فن إلى آخر. و الشمس التى أخذت تبدو من بين شفيف الغمام كانت تبعث أشعتها الواهنة فتزيد المنظر روعة و جمالا.

و الواقع أنه كان مشهدا رائعا ملأنا بهجة و غبطة و بعث فى عروقنا النشاط و الحيوية ذلك المشهد بعد كل ذلك التعب الذى كنا قد لقيناه فى سفرتنا هذه.

و مما لفت نظرنا فى هذا الشارع البديع عدة حفر متباعدة هنا و هناك، كانت

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۳۰

ساحل الفرات فى الحلة

جميعها مملوءة ماء، و حولها الغربان تتطاير دون أن تعير السائرين أدنى اهتمام؟!

و بعد ثلاث ساعات متواصلة من السير بدت لنا عن كثب عدّة منائر بيض و بعد قليل بلغنا أول حى من أحياء مدينة الحلة و واجهنا جسر عائم صغير أنشئ هو أيضا من القوارب إلّا أنه كان يتميّز بقلّة حركة المرور عليه بالنسبة لجسر بغداد، و بعد أن عبرناه دخلنا المدينة. و ما كدنا نصل أول ميدان من ميادينها حى رأينا مرافقينا من رجال الأمن الذين كانوا قد سبقونا فى الذهاب إلى المدينة لتهيئة محل إقامتنا فيها فى انتظارنا. و لقد أخذونا إلى دار خالية لأحد متمولى هذه المدينة و كان قد ذهب إلى الحج؟!

الحلة إحدى المدن التابعة لحكومة بغداد و قيل لى إنها اجتاحها فى سنة ۱۸۳۲ وباء الطاعون و ذهب ضحيته عدد كبير من أهاليها. إلّا أنها يسكنها اليوم خمسة عشر ألف نسمة تقريبا، و هم خليط من العرب و الكلدانيين و صناع اليهود

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۳۱

و مثريهم و جماعة من الشيعة الإيرانيين، و موظفى الباب العالى. و الطائفة الأخيرة تجدهم فى أى بلد تركى و كأنهم السرطان الذى يفتك بجسم تلك البلدان. و يضاف إلى ذلك أن فى هذه المدينة فئات أخرى كالأعراب الذين يقطنون بيوت الشعر و الخيم، و الزوار الذين يكثر عددهم فى مواسم خاصة عند ما يقدمون لزيارة بعض المواضع و المزارات الواقعة بجوارها.

و مما لحظته أن دور الحلة كلها قد شيدت بمواد أبنية قديمة حتى أننى شهدت بعض الآجر و قد نقش عليه اسم نابو كدونسر «بختنصر» و أنهم قد أفادوا فى إقامة تلك الأبنية من القار بدل الجص على عادة البابليين القدماء. و تمتاز منازل الحلة كما هو الحال فى بغداد بأنها مرتفعة الجدران ليس لها من الخارج منافذ أو شبابيك البتة كما أنها تحوى ميزات و خصائص العمارة الشرقية.

و تملأ حدائق و بساتين الحلة غابات النخل الكثيفة و أشجار الموز الجميلة.

و من حسن الحظ أن هذه الأشجار الكبيرة السامقة وجدت هنا لتقلل من بشاعة منظر دور هذه المدينة التى شيدت كلها على نسق واحد و طرز غير جميلة، و لا سيما أننا من سطح منزلنا نستطيع أن نرى عن بعد مناظر رائعة لهذه الغابات تبعث على البهجة و الانشراح، كما نرى ضفتى النهر التى غطتهما النخيل من الجانبين بوضوح تام. و نشاهد فى النهر عدة زوارق فى حركة متصلة و جماعة من الفرسان الذين يغسلون جيادهم بماء شط الفرات و من المزارعين الكسالى الذين لم يريدوا أن يعبروا إلى الجانب الآخر بواسطة الجسر، لذلك تعروا من ملابسهم و وضعوها فوق قربة نفخوها بالهواء و أخذوا فى شق طريقهم سباحة و أمامهم القربة التى تحمل الملابس. و الواقع أن هذا العمل وراثى وصل إليهم من «نياكانشان»؟!

لم نر فى مدينة الحلة بناية مهمة تلفت النظر قد شيدت فى العصر الإسلامى البتة، اللهم إلّا مسجدا صغيرا شيدوه فى ذلك الوقت فى الطريق الذى يصلها بمدينة كربلاء، و هذا المسجد يعرف بمشهد الشمس و «مسجد على» و تذكر الروايات المشهورة أن أمير المؤمنين عليا قد أشار إلى الشمس لتقف فى هذا المكان لإكمال نصره فى إحدى حروبه ..

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۳۲

و لكن الرجوع إلى كتاب تاريخى قديم يبحث هذا الموضوع نجد أن بختنصر قد شيد فى هذا المكان معبدا لعبادة الشمس لا غير. و توجد فى هذا الكتاب رواية عن بختنصر هكذا تقول: «إننى شيدت فى بابل معبدا بالآجر و القار للشمس التى تعد صاحبة السلطة المطلقة و الحاكمة الناهية فى بلاطى و المرجع الأعلى فى المنازعات و الاختلافات على مختلف أنواعها أى لرب شماس الذى يعد أكبر القضاة و كبير حكام العالم».

مدينة الحلة التى هى من إنشاءات العهد الإسلامى قد أخذت مكان مدينة بابل العتيقة منذ بداية القرن الثانى عشر، و عندما كان المسلمون يقومون بإنشائها أخذت شمس البابليين فى الإشراق على سواحل شط الفرات مرة أخرى و لكن الآن لم تصبح عاصمة بختنصر التى كانت تنافس فى العهد القديم مدينة نينوى الكبيرة، غير ولاية صغيرة تابعة لدولة تركيا المعظمة؟!.

إن رب اسرائيل يجب أن ينتقم انتقاما شديدا من هذه المدينة و أن يهدمها و يمحوها من الوجود، لأنه كان قد أخبر بواسطة أنبيائه بأنه: «إذا ما وصلت عظمة مقام بابل لدرجة أن تنافس بها السماء و أن قدرتها تبلغ مبلغ الكمال فعلىّ أن أقوم بهدمها و أعدمها من الوجود.

و إذا تجولنا فى أطراف المدينة و تفحصنا جدرانها المهدمة ظهر لنا أن هذه الحيطان كانت تصل بين التلين الواقعين أقصى الجهتين المقابلتين لمدينة بابل، و على هذا الأساس كانت مدينة الحلة بمثابة المركز لمساحة بابل التى كانت تبلغ خمسمائة و ثلاثة عشر كيلومترا مربعا، و أنها كانت تقع فى وسط مائة بوابة.

و ينبغى ألا نتصوّر أن هذه المساحة الشاسعة كلها كانت مأهولة بالسكان و أن الأبنية و العمارات كانت تغطيها من أقصاها إلى أقصاها ذلك لأنه بحسب رواية كونت كورى لم تكن عمارات سواحل الفرات تشغل أكثر من (۹۰) أستادا مربعا، أما بقية الأراضى التى تحيط بهذه المساحة فكانت تزرع لدرجة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۳۳

تكفى لإطعام أهالى المدينة كلهم مدة طويلة فى أوقات الحصار التى قد يتعرضون لها، أو أزمان القحط و المجاعات التى كانت تهدد المدن القديمة الزمان.

و من ناحية أخرى كان أهالى مدينة بابل كثيرين، و كانت أراضيها بخلاف المعتاد فى المدن الشرقية الأخرى ذات قيمة و أهمية بالغة لذلك نراهم يضطرون إلى إنشاء العمارات ذات الطبقات.

۲۴ ديسمبر:

ذهبت اليوم لزيارة بيرس نمرود «Birs» أو ما يسمى ببرج بابل. و إذا أردنا أن نصدق روايات التوراة التى ذكرت هذا البرج كثيرا فى معرض تاريخ العبرانيين وردّت إليه السبب فى تعدّد الألسن و اختلافها و ظهور النحو و الصرف حق لنا أن ننزل عليه لعناتنا. إذ لم يستطع الإنسان أن يلم بدقائق علوم اللغة مهما بذل من جهد و تعب تلك العلوم القاصمة للظهور؟!

و من العجيب حقّا ألا يكون هذا البرج المهدّم أقل مما سببت من تشتت اللغات و اختلافها. فقد شيد- كما هو بيّن- بلبن و آجر على أحجام و أبعاد مختلفة و أن كلّا منها يعود إلى زمن تاريخى خاص!

و بعد أن مررنا (بمشهد على) بلغنا طريق الحلة الرئيسية التى تقع فى صحراء قاحلة لا نبت فيها و لا زرع. و على جانب من هذه الصحراء رأينا عدة خرائب يرجع عهدها إلى أزمان سحيقة و فى وسطها مرتفع أقامه- كما هو ظاهر- الإنسان بيديه و يشبه إلى حد بعيد تلّا أو هضبة. و الواقع أن لهذه الخرائب فى وسط هذه الصحراء منظرا يلفت إليه الأنظار من بعيد. و كلما تقرب الإنسان من هذا المرتفع رأى حجمه أكبر مما قبل رويدا رويدا، حتى أن عينه تتعب فى تقصى أجزائه و دقائقه؟!

على أى حال نحن نتقدم منه الآن و جيادنا التى أرهقها هطول الأمطار أمس و أتعبها سير اليوم ترتقى بصعوبة الكثبان المبعثرة هنا و هناك، و أخيرا عبرنا تلا صناعيّا و وصلنا التل المعروف بتل إبراهيم و وقفنا أمام بناية كانت قد شيدت على

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۳۴

برج نمرود

الطراز العربى. و هذه البناية هى المقبرة الخيالية أو الوهمية لإبراهيم و مع أن احترامها فى هذه البلاد أكثر من أبنية عزرا و ما سواها من مراقد زعماء اليهود التى فى بلاد ما بين النهرين، فأراضيها لم يلجأ إليها إلّا جماعة من المزارعين الذين يشتغلون بالزراعة فى هذه الأراضى التى تحيط ببرج نمرود.

و تجد على جميع حيطان هذه البناية من الداخل بصمات حمرا لكفوف الإنسان؟!

و يفصل برج نمرود عن تل إبراهيم واد غير عميق. و فى اعتقاد مسيو «أوپرت» العالم الآثارى المختص بآشور- الذى قام بعدّة تنقيبات و اكتشافات فى هذه المناطق و توفق فى الوصول إلى تسجيل بعض المعلومات المهمة عن التاريخ القديم- أن برج نمرود هذا لم يكن فى الحقيقة إلّا ذلك المعبد الذى ذكره هردوت.

و مهما يكن ففى أعلى البرج قطعة من حائط شيّد بمواد بنائية كثيرة يبلغ

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۳۵

ارتفاعها أحد عشر مترا و هى تشبه إلى حد بعيد برجا ذا قاعدة مربعة تهدم بعض أقسامه العلوية بشكل شق أصيب به. و فى أطراف هذا الجبل المتكوّن من هذه الخرائب تجد قطعا كبيرة من الصخور و الآجر منتشرة هنا و هناك، و كل منها ملتصقة بالآخر بإحكام لدرجة أن كانت لها صلابة الحديد، و يخيّل أنه من الصعوبة بمكان فصل بعضها عن بعض. و من هذه النقطة المرتفعة تستطيع أن ترى جميع أقسام هذه الأبنية المخربة التى تقع على أطرافها. بل إن أفق العين واسع بحيث تستطيع أن تشاهد فى الجنوب مغارات مشهد على و فى الشمال الغربى أبنية مدينة الحلة، و فى الشمال غابات نخل كربلاء و أخيرا تحت القدمين ترى بحيرتين بصورة واضحة جلية.

و تجد حول هاتين البحيرتين مضارب لقبائل من الأعراب لا تزيد على بيوت للشعر أو خيم بسيطة إلّا أن سكانها سعداء و فرحون بمنازلهم هذه لأنهم على الأقل بعيدون عن متاعب و لصوصية موظفى الترك الأوباش.

و بعد أن شرح لنا الكولونيل «جرارد» بعض دقائق هذا البرج هبطنا من التل و أخذنا فى التفرج عليه من أسفل و استطعنا بسهولة أن نميّز طبقاته و أقسامه المتعددة التى شيدت فى أزمان متباعدة مختلفة. أما معرفة ارتفاع البرج فبدت لنا صعبة لأن الطبقات السفلية منه كانت قد غطتها الأوحال و الطين و ما سقط من أقسامها العلوية عليها من حجارة و صخور و تراب بحيث تعذر علينا معرفة مقدار تلك المواد التى تراكمت على قاعدته. و لكننا لو فصلنا بعض أقسامه و عينا كلّا منها حتى نصل مستوى الأرض العام و أخذنا بنظر الاعتبار شبهه البعيد بقصر سرجون لاستطعنا فى هذه الحالة تعيين طول البرج بثمانين مترا تقريبا على وجه الحدس و التخمين. و بناء على هذه الفرضية يكون ارتفاع كل طبقة من الطبقات السبع لهذه البناية ثمانية أمتار تقريبا و كل هذه كانت تنتصب فوق قاعدة طولها مائة و ثمانية و عشرون مترا و ارتفاعها خمسة و عشرون مترا.

و جميع هذه الطبقات كانت متصلة بعضها ببعض بواسطة درج يقع فى القسم الأمامى منها و من ناحيتها الشمالية الغربية. كما أن جميع آجرها الذى شيدت به كان ملونا و موشى بالميناء المزوق.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۳۶

خرائب معبد جسر مردوك

و كلما زدنا الملاحظة فى شرح هردوت لقلعة اكباتان «همذان» و أنعمنا النظر فى الألوان المكتشفة فى برج خرساباد يتضح لنا أن هذه الطبقات كانت خاصة بالأرباب الحماة للأسبوع، و كل منهم كان له لون خاص به و أن ترتيبهم كان يجرى على حسب ترتيب أيام الأسبوع و فى الأعلى أو الطبقة السابعة كانت خيمة الرب نبو مضروبة و قد كان هذا كبير الحكام و صاحب السلطات المطلقة فى السماء و الأرض. و بحسب الروايات القديمة كان هذا الرب ينام على سرير ثمين بديع مزيّن بالجواهر بجانب فتاة عذراء محلية جميلة جذابة و أمامه منضدة كبيرة إلى حد ما، نفيسة رائعة الصنع. و الكهنة يحرقون كل عام فى معبده مقدار ألف تالان من الصمغ و المستكى و ينحرون أضاحى كثيرة عند

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۳۷

محرابه، أما الآن فلم يبق أى أثر من هذه المحلات و المواضع و الزينات، و إن هذا البرج العظيم قد تهدم بكليته و أن الكثير من مواده التى أنشئ بها قد تراكم على جوانبه. و لقد أشرت من قبل إلى أن هذا البرج لم يكن فى الواقع إلّا المعبد الذى ذكره هردوت للرب بلوس، الذى ذكرته الروايات البابلية أنه معبد الألوان السبعة، و الحقيقة أنه ليس ثمة شك و لا ريبة فى هذا البتة إلّا أن بعض

المكتشفات التى عثر عليها سير رولنسن فى زوايا هذه البناية تضع فى أيدينا معلومات مهمة جدّا.

إن هـذه المكتشـفات تؤيـد الروايات العبريـة و تعين لمعبـد بلوس موضـعا جديدا. و من بين الألواح المكتشـفة هذه التى جاء فيها قول بختنصـر نفسه ما هذا نصه: «أما ما يخص البناية الأخرى المعروفة باسم بناية الأنوار السـبعة و التى لم تعد أقدم آثار برسـيبا فلقد شيدها أحـد الملوك القـدامى (فاصـلة ذلك الزمان عن الآن تقدر باثنين و اربعين من عمر الإنسان) و لكنه لم يتمكّن من تكملة بنائه و إقامة قمته العلويـة. و الناس لم يهتموا به منـذ حـدوث طوفان نوح و لكنهم بعد مدة أخذوا فى تأويله و اختلاق الأساطير و الروايات حوله. و من ناحيـة أخرى حـدثت زلزلـة و رعـد عمـل على تصـديع بعض جوانب هـذه البنايـة التى كـانت مشـيدة باللبن و الطين، و فى النهاية تهـدمت هـذه البنايـة العظيمـة بسـبب حوادث أخرى و أصـبحت على شـكل تـل غير مرتفع. بيـد أن الرب الكبير مردوك «مردوخ» قد أوصـى إلىّ أن أعيد بناءها. و لقد قمت بهذا الأمر دون أن أغير موضـعه أو أمس رمحه بسوء، ففى شـهر السلامة و أيام السعادة نفذت مـا طلب منى فأعـدت تشـييدها مقيما العقود و معيـدا الآجر الموشاة بالميناء الملونـة و وضـعت اسـمى فى مقـدمتها من باب الاعتزاز و الافتخار. أجل إننى بادرت إلى إقامة البرج و أعدت إليه سابق عهده و جمال منظره. أعدته بعد أن كان أكواما من الطابوق و التراب لا يختلف عن تل غير مرتفع فى أحسن الفروض و الأحوال».

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۳۸

إذن يتضـح من هـذا أن برج بابل المشـهور لم يكن غير هذا التل الذى أقف عليه الآن إلّا أننى لا أعرف على وجه التأكيد مدى صـحة الروايات العبرية التى تذكر أن هذا البرج كان السـبب فى تعدد اللغات و تعقيد أمورها بما وضع من أمور النحو و الصرف. و الواقع أنه من الصعوبة بمكان القطع بمثل هذه الحقيقة الغامضة التى لا تؤيدها أدلة عقلية منطقية.

على هذا الأساس لم يكن هذا المعبد الذى يجب أن أسـميه باسـمه الأصلى و هو معبد الأنوار السبعة يقع فى مركز مدينة بابل، بل لعله كان يقع فى ضاحية برسـيبا المتاخمة لبابل. و ينبغى أن لا نتصور أن ابتعاد القصـر الملكى عن المعبد الدينى و كل منهما يقع فى محل معيّن خـاص كـان معنـاه أن بابل و برسـيبا كانتا مـدينتين مختلفتين و مسـتقلتين إحـداهما عن الأخرى، يقول هردوت مثلا: إن الحصار الذى ضـرب حول مدينة بابل كان قد شمل برسيبا أيضا إلّا أننا نستطيع التصوّر أن الحال لم يكن كذلك على الدوام و فى كل حصار تتعرّض له بابل. كما أننا نسـتطيع الفرض أن هذا المعبد كان تارة بعيدا عن المدينة و أخرى واقعة ضمن دائرته. ذلك لأن الملوك فى كل زمان كانوا يوسعون رقعة المدينة أو يضيقونها بحسب مقتضيات الزمن و ضروراته؟!

۲۵ ديسمبر ۱۸۸۱:

فى طريق عودتنا من برسيبا توقفنا فوق كثيب يعرف بعمران ابن على.

و هـذا الموضع هو المكان الذى عبرنا منه منذ ثلاثة أيام. تقع هنا كثبان خرائب و حفرت الخنادق المبعثرة هنا و هناك التى حمل منها التراب لأغراض التنقيبات التى جرت فى هذه المنطقة.

و المرتفعات و المنخفضات كثيرة لدرجـة أن الشـخص الغريب و لا سـيما السائح يتيه فيها و يضل طريقه. و تجد إلى جانب كل ذلك صخورا و أحجارا كبيرة متلاصقة الواحدة بالأخرى لدرجة لا يمكن فصلها قط ..

و مما يلفت نظرك هنا تمثال الأسـد الصـخر الذى ظهر قسم من جسـمه و دفن الآخر تحت التراب. إلّا أن الملحوظ فيه أنه لم يراع فى نحته الدقة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۳۹

و الجمال الفنى. و هـذا الأسد هو الأثر الوحيد الذى اكتشف من قصور ملوك كلدية القدامى تلك القصور التى أسـلم فيها الإسـكندر المقدونى روحه.

أما الحدائق المعلقة التى أنشأها بختنصر لزوجته فلم يبق منها شىء و كانت هذه تسمى بآميتيس «Amytis» و هى بنت أستياج ملك الماديين الذين تقع بلادهم فى الأقسام الجبلية المزدانة بالأشجار و الحدائق الغناء الكثيرة.

و لقد أقام بختنصر هذه الحدائق بناء على رغبة زوجه التى كانت ضجرة من مناظر صحراء بابل و لتعودها من جهة أخرى على مناظر بلادها المزدهرة بالأشجار و الأزهار.

و الحدائق المعلقة هذه لم يكن لها عمر طويل إلّا أنها كانت جميلة جذابة كثيرا، فلقد كتب فيها الكونت كورس و فاخر فى كتابته حتى أنه عدها إحدى أعاجيب ذلك الزمن، كما أن ديودور الصقلى ذكر هذه الحدائق فى بعض كتاباته و أسهب فى جمالها و روعتها.

و الخلاصة أن مدينة بابل بعد موت الإسكندر و تأسيس مدينة سلوقية قد تركت و أخذت تضمحل رويدا رويدا، ثم فقدت مقامها الرفيع و انهدمت عماراتها الجميلة البابلية. و انتهى بها الأمر أن يبست أشجارها و ماتت بسبب قلّة وصول الماء إليها، و إن فردوس ملكة آميتيس صارت موضعا للأشواك و جسد امپراتريس الجميل سقط و اختلط بالتراب.

و فى زمن الملوك الأشكانيين غدت مدينة بابل مهدمة متروكة تماما.

و إن بساتينها الجميلة الرائقة انقلبت إلى مقابر موحشة. إن مقابر البارثيين التى اكتشفت منذ بضع سنين قد أثبتت هذا الأمر بحيث لا يقبل ردّا و لا جدالا. إن الاستحاثات و التنقيبات التى أجريت فى أطراف القصر الملكى أتت بنتائج مفيدة و مهمة جدّا. و ما زالت تلك العمليات قائمة على قدم و ساق فزهاء ۳۰۰ إلى ۴۰۰ شخص عربى منهمكون فى رفع التراب عن حيطان هذا القصر و ما يتاخمه، و لقد اكتشفت أن حيطانه كانت قد أنشئت من الآجر و القار و أن أبهاءه الشامخة الطويلة التى تشبه الأبهاء المحيطة ببرج نمرود كما رأيناها من قبل قد اكتشفت أيضا و رفع عنها التراب. و قد عثر إلى جانب كل ذلك على أشياء لم

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۴۰

يراع فى صنعها الفن و الروعة إلّا أنها مهمة من الناحية التاريخية، و من حيث ما تلقى من ضوء فى حوادث تلك الأزمان السحيقة و لا سيما ألواح الطين المفخورة الكثيرة التى دونت عليها عبارات بالخط المسمارى بصورة متداخلة السطور بحيث يمكن قراءتها بصعوبة كبيرة و تعيين معانيها.

و فى غالب الأحيان عندما كانوا يزيدون فى حفر الأرض فقد كانوا يكتشفون فى الأعماق الغائرة أوانى صنعت من القار و هى مكسورة و فى جوفها عظام لكتف ثعلب أو فك جواد؟!

و على بعد كيلومترين من هذه العاصمة القديمة يقع تل عال كبير على شكل هرم ناقص كنا نراه من مسافة بعيدة جدّا من خان الإسكندرية. و يخيل إلى المرء أن هذا التل من جانب و برج نمرود من الجانب الآخر كانا يعينان الحدود النهائية لمدينة بابل العظيمة. و هذا التل الذى يبلغ طوله مائة و ثمانين مترا و ارتفاعه أربعين مترا ليس طبيعيّا و إن الإنسان قد أقامه بيديه أو قد ساعد على إقامته و سكنة هذا المحل يقال لهم البابليون.

و فى اعتقادى أن هذا التل من بقايا المعبد الذى ذكره المؤرخون اليونانيون من أنه صنع فى عهد حكم آسارحادون ((Assarhaddon) أو سور آخئيدين)(Assour -Akheyddin) من أجل الرب بل مروداك(Bel -Merodaek) و فى حكم بختنصر و نريگ لى سور، أو نيركال سار أو سور قد توسع و جمّل كثيرا و أضيف إليه بعض التزيينات. و هذا البناء قد هدم كله بأمر من خشيارث الملك الإيرانى. بيد أن الإسكندر المقدونى كان يفكر فى بنائه عودا على بدء للبابليين و لكن المنية عاجلته و أصبحت بعد ذلك قلعة حربية يونانية، أما الآن فقد انقلبت تلا من تراب ليس له مظهر و لا شكل معيّن.

و لقد ارتقينا نحن هذا التل من غير أن نلاقى صعوبة تذكر و بلغنا قمته و فى موضع التمثال الذهبى الذى كان يقع هناك (و قيل إن خشيارث قد أخذه معه) لم نجد سوى أحجار و صخور مكسرة و حفرة تشبه إلى حد بعيد بئرا غير عميقة. و ليس من البعيد أن تكون

هذه مرصدا لمنجمى كلدة القدامى السعداء؟! و هنا و هناك كنا نعثر على قطع صغيرة كتبت بخطوط يونانية أو

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۴۱

آرامية. و فى نهاية هذا التل من الناحية الجنوبية عدّة حفر نرى من المؤكد أنها حفرت بأيدى المنقبين و فى أطرافها عدّة مبان مشيدة من الطين و الآجر، و من المعلوم أنه لما لم يجدوا آثارا مهمة فيها تركوها.

و على أى حال تبعث مناظر خرائب معبد بلوس و مدينة بابل القديمة على الأسى و الحزن. و الآن ما زال جماعة من العمال العرب و الترك منهمكين فى عمليات التنقيب و تصل إلينا همهمتهم و أغانيهم بصورة جميلة.

و تحيط بهذه الكثبان و التلال التاريخية الأشواك و النباتات الطفيلية الطبيعة من كل جانب، و هى فى الواقع غير مأهولة لا يقطنها سوى قوم من الرعاة مع خرافهم و جماعة من الحفارين و المنقبين ..

و بناء على روايات التوراة جاء على لسان اللّه سبحانه و تعالى قوله «بعد مرور سبعين سنة من ظلم و جور بابل سأتجه عليها مغضبا و أمحوها عن الوجود إلى الأبد».

۲۶ ديسمبر ۱۸۸۱:

إننى متأسفة جدّا لأنى لم أستطع أن أرى بابل منذ ألفين و ستمائة سنة عند ما كانت عاصمة بختنصر و سلفه ذات جلال و رهبة. فلو كان يحدث مثل هذا لكنت أغتنم الفرصة و أعرض نفسى فى إحدى الجلسات الطبية التى كانت تعقد يومئذ.

فى ذلك العصر عندما كان الواحد من سكنة بابل يصاب بمرض ما كان يخرج من منزله و يوضع فى ميدان من ميادين المدينة أو فى متقاطع طرق يكثر العبور منه. و كان الناس فى هذه الحالة يحيطون بالمريض المضطجع و كل منهم يصف له الدواء الناجع بحسب سليقته و معلوماته و تجاربه؟!

و هنا و دعنا الكولونيل جرارد و استودعنا اللّه إياه، اتجه هو نحو «كدستان» و توجهنا نحن نحو مدينة كربلاء التى تعد من مراكز الشيعة المهمة و فيها عدّة مدارس كبيرة مذهبية و فى بعض الأحيان يقضى طلاب هذه المدارس عشرين سنة أو أكثر فى تحصيلاته الدينية.

و فى موقع خروجنا من بابل أخذنا الأدلة و عبروا بنا قناة تتوسط مدينتى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۴۲

الحلة و كربلاء و ذلك بواسطة زوارق شراعية صغيرة. و عندما بلغنا اليابسة طفقنا نمر خلال أرض صفراء منبسطة ليس فيها زرع و لا نبت لأن المحصول الربيعى كان قد حصد و نقل إلى المدن للبيع .. كما أنا لم نر فى طريقنا قرية و لا قصبة.

بعد ساعتين من المسير لاحت لنا عن كثب خيم جماعة من الأعراب الكبيرة مرتفعة بين الأشجار و النباتات و أمامها برك و مستنقعات. و كانت بين هذه الخيم خيمة أكبر و أوسع من سائرها و أمامها فسحة من الأرض خالية و كان يعلوها علم يخفق فى الأعالى.

و الواقع أن خيمة رئيس القبيلة وحدها تكون لها مثل هذه الميزات فقط.

كما يكون له هو ميزات بين أفراد القبيلة خاصة به. و من المعلوم أن ناصر الدين شاه الإيرانى أخذ بهذه الرسوم و الصلاحيات أيضا. إذ كانت تضرب له خيمة فى مكان مستقل بعيد نوعا ما عن مضارب الآخرين و يرفع عليها علم عندما كان يخرج للصيد مع حاشيته أو للقيام بنزهة فى البادية.

و الخلاصة أن القافلة أخذت تحت السير إلّا أن الشمس كانت تجنح إلى المغيب، و كان ينبغى لنا أن نقطع مسافة كبيرة لكى نصل إلى غابات النخيل التى تبدو أمامنا من بعيد و هى موضع الاتصال بين طريق الحلة و كربلاء على حسب أقوال الأدلة لنا.

أخذت السماء رويدا رويدا يملؤها الظلام و السحب تتراكم فوق رؤوسنا و أخيرا شرع المطر فى الهطول و تعذرت علينا متابعة السير فى ذلك الطريق الموحش الذى تختفى تحت نباتاته و مزروعاته مجارى المياه و الآبار. و لا سيما أن أدلتنا لم تكن لهم المهارة و الشجاعة الكافية إذ رأيناهم يقولون لنا إنه ينبغى لنا أن نتقدم القافلة لأننا نحمل السلاح دونهم لا لشىء آخر.

و لو لا- أن اتفق أن رأينا فى طريقنا أربعة أشباح ضخمة لم يكن فى مكنتنا متابعة السير للوصول إلى غابة النخل. و الواقع أن هذا المشهد أثار فى نفوسنا الخوف و الوحشة و دفع أدلتنا و من كان معنا فى هذه القافلة المنحوسة إلى أن يختفوا خلف الأشجار، و اضطررنا نحن فى هذه الحالة إلى تجريد سلاحنا

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۴۳

و التهيؤ لإطلاق النار، و لكن اللّه سلم إذ ما كدنا نقترب بضع خطوات حتى وجدنا أن هذه الأشباح التى حسبناها حيوانات مفترسة ضخمة لم تكن سوى جماعة من الحطابين يحملون فوق ظهورهم حزما من الشوك و أغصان الأشجار؟!

و بعد أن استعدنا اطمئناننا و التقطنا أنفاسنا اللاهثة أجبر أحد أفراد قافلتنا هؤلاء الحطابين أو بالحرى جامعى الشوك أن يرافقنا إلى محل نطمئن إليه و تأمن فيه القافلة فى ظلام هذا الليل الموحش. و أخيرا بلغنا قرية صغيرة كانت تبعد كيلومترين من هذه الأهوار و وقفنا أمام باب هشمت خشبه النمل و دام وقوفنا ربع ساعة لكى يسمح لنا بالدخول إلى هذا المنزل الذى لا ندرى ماذا ينتظرنا فيه.

و بعد لأى و صبر فتحت الباب و دخلنا فإذا هو خان بين- بين لا بالواسع و لا الصغير تحيط به من الجوانب عدّة دكاكين. و كان هذا الخان يضاء بفوانيس نفطية و كذلك الدكاكين الصغيرة القذرة. لقد أمضينا ليلتنا هنا مضطرين بسبب هطول الأمطار بغزارة فى ذلك الوقت الأخير من الليل.

۲۷ ديسمبر:

أفقنا اليوم قبل أن تبزغ الشمس و تابعنا سفرنا إلى كربلاء و بعد أن عبرنا جسرا صغيرا يقع على شط الفرات بلغنا الطريق الموصل إلى هذه المدينة الدينية. و لقد تغيّرت المناظر منذ وطئت أقدامنا هذه الطرق فبدل تلك الصحراء القاحلة الكئيبة، أخذت تطالعنا بساتين و حدائق مزدهرة يانعة مكتظة بأشجار الليمون و بالنخل و الأزهار البديعة المختلفة الألوان.

و فى الطريق كنا نرى حركة المرور نشيطة و دائبة، و قسم من هؤلاء كان من النسوة إما ممتطيات ظهور الدواب و إما ماشيات على أرجلهن، و كن يسمعننا بعض العبارات الجارحة و السباب الذى لا ندرى علته و سببه بيد أن

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۴۴

الرجال منهم لم يقولوا شيئا على ما كان يظهر لنا.

و لقد وضح لدينا أن هاته النسوة كن ينفعلن من رؤيتنا بحيث لا يستطعن إخفاء شعورهن المعادى لنا أو إسماعنا الكلمات الجارحة. و لعل مردّ ذلك تحديقنا فى وجوههن أو الكراهية المتأصلة فى قلوبهن ضد الأوروبيين.

و على أى حال لم يمنعنا ذلك من التطلع إليهن و إن كانت وجوههن دميمة تبعث على القرف و الاشمئزاز و أجسامهن قذرة تقذى العين. كان اشمئزازهن لنظراتنا عظيما لدرجة أنهن كن يتمنين لو اتصفن بمزايا و خصائص «مدوز» حتى يستطعن تجميد نظراتنا و التخلص منها.

و قبل أن تتحقق أمنية هاته القرويات لفت نظرنا منظر غابات النخيل و الليمون المتناثرة على جانبى الطريق، و غمرنا جوها الرائع الجميل بحيث نسينا السائرين جميعا النساء و الرجال على حد سواء إلّا أنه لم يطل تمتعنا كثيرا بهذه المناظر المزدهرة فسرعان ما رأينا أنفسنا على عتبة باب المدينة.

و أمام هذا الباب الذى يقال إنه من المبانى العتيقة ساحة واسعة كان يشغلها عدد من الحجارين المنهمكين فى قطع و صقل الأحجار و

الصخور المستعملة فى تشييد المقابر و ما شابه ذلك. و كان قسم من هذه الصخور مصقولة و مهيأة للبيع، و القسم الآخر فى طريق إكمالها و عرضها على الطالبين.

و لقد علمت أن هؤلاء الحجارين اتخذوا هذا المكان لاستقبال القادمين من أفراد القوافل الذين كثيرا ما يقدمون الى هذه المدينة لدفن موتاهم فيها.

و بمجرد أن يطأ هؤلاء الغرباء أرض هذه الساحة يحيط بهم أولئك الحجارون من كل جانب، فيعرضون عليهم بضاعتهم بإلحاح و إلحاف مملين مزعجين.

و بعد مساومة تطول فى أكثر الأحيان يتفق الجانبان على الثمن، و على الأثر

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۴۵

مدينة كربلاء

يأخذ الحجار فى تدوير اسم الميت و أبيه وجده على الصخرة.

و بعد أن قطعنا هذا الميدان الواسع وصلنا إلى الباب بيد أن الحراس رفضوا دخولنا منه و طلبوا من أدلتنا أن يأخذونا من طريق آخر و يدخلونا المدينة من خلف سور المدينة، و ينزلونا فى المواضع السفلى الأخيرة من المدينة.

و على هذا الأساس انعطفنا من هذا الطريق إلى آخر و مررنا بجماعات كبيرة من الناس كانوا قد أقاموا معسكرات. و لقد علمنا أن هؤلاء كانوا من الزوار الذين وفدوا إلى المدينة المقدسة و لضعف حالتهم المادية لم يستطيعوا الإقامة فى الخانات و المنازل التى فى الداخل، لذلك اضطروا إلى الإقامة فى الخارج على شكل معسكرات أو مضارب من الخيم. و لقد رأيت كلّا من هؤلاء الزوار المساكين يقيم بجانب أثاثه الساذج و أمام دابته الواهنة و هو فى حالة تعبد و تهجد. و فريق منهم منهمك فى مضغ التمر الذى نواته أكبر من شحمه و مواده.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۴۶

و بعد مدة اجتزنا بابا إلى شارع كان يبدو أنه شق حديثا. و لقد توقف أدلتنا فى وسط هذا الشارع و دخلوا منزلا قذرا مظلما يحوى حجرا ضيقة!

و لم نر نحن بدّا من قبول النزول فى هذا البيت على علاته الكثيرة و قذارته، ذلك لأن مدينة كربلاء تعد أكبر و أهم العتبات المقدسة لدى جمهور كبير من المسلمين، و يؤمها سنويّا عدد ضخم لا قبل لها باستيعابه على رغم كثرة خاناتها و منازلها و دورها المخصصة لإقامة الزوار. ثم إنه كان ينبغى لنا أن نبعد عن الزوار ما استطعنا؟!

و بعد أن اطمأن بنا المكان الذى وضع فى تصرفنا و هو الطبقة التحتانية الرطبة ارتقيت الدرج إلى السطح و أخذت من هناك التطلع إلى منظر المدينة الرائق و مشاهدة قبة و منائر مرقد الإمام الحسين المذهبة على الجهة اليسرى، أما الجهة الأخرى فكانت فيها قبة صنعت من الكاشى الأزرق يغلب على الظن أنها فى أواخر العهد الصفوى.

ينبغى لنا الآن أن نحسن التصرف و الحكمة كالسياسيين لأنه نريد أن نزور المرقد الشريف هذا الذى لا يقل احترامه لدى الإيرانيين عن الكعبة بيت اللّه الحرام من دون أن يكون لنا ما يجيز لنا هذه الزيارة الخطرة. و لأجل هذه الغاية نفسها تحملنا كل هذه المصاعب و المشاق فى سفرتنا، و فضلنا أن نسكن هذا المكان الرطب القذر الذى يكاد يشبه الزريبة، إلّا أن زوجى «مارسل» كان قد اعتبر بواقعة الكاظمين و هيأ كل ما يلزم لزيارتنا هذه، فأخذ من بغداد عدة توصيات لرجال الدين و وجوه البلد و المسؤولين فى كربلاء لمساعدتنا و تسهيل أمرنا.

و فى البداية ذهبنا لمقابلة القنصل الإيرانى، و وجدناه رجلا لطيفا يبلغ عمره أربعا و ثمانين سنة متغضن الوجه حلو اللقاء. و وجدنا حوله عددا من رجال الدين و القراء و المراجعين. و ما إن رآنا حتى صرف جماعة من زائريه و مراجعيه و أجل مقابلة الآخرين إلى

اليوم الثانى ليتفرغ لمقابلتنا، و بعد أن ترك الجميع المنزل و لم يبق فيه إلّا أفراد عياله أصغى إلى ما كنا قد أتينا من أجله و لقد أجاب عن ذلك بقوله: «إنه لم يتفق قبل الآن أن استطاع شخص نصرانى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۴۷

زيارة مرقد الإمام الحسين، إلّا أننى رغم ذلك سأبذل جهدى لتحقيق رغبتكم هذه ولى أمل بأن أنجح فى هذا، و على أى حال ينبغى لكم أن تعتمدوا على ممثل أكبر و أليق سلاطين الإسلام .. و على الفور أرسل أحد خدمه إلى كليدار الصحن الشريف يخبره بوصولنا و يطلب منه الحضور إلى هنا لعرض رغبتنا عليه فى هذا المجلس.

و فى فترة غياب الخادم اشتغلنا بحركات طفل كان على جانب من الذكاء و الجمال و ملاعبته للشيخ و مداعبته إياه، و لقد هنأت القنصل الإيرانى لحظوته بمثل هذا الطفل الذكى لأمتلك قلبه ليهيئ لنا سبيل زيارتنا للمرقد الشريف؟! و سمعته يقول ردّا على ذلك بقوله: «أجل إنه طفل جميل و ذكى، و ليس من أحفادى من هو فى قوته و سرعة خاطره ذلك لأنه ولد و ترعرع فى ظل الإمام الحسين فى كربلاء» و لقد أيد أفراد عياله من النساء قوله و من ثم أخذنا فى تجاذب أطراف الحديث حتى عاد الخادم و قال: «إن الكليدار قد ترك المدينة منذ مدة لتغيير الهواء و النزهة و إنه بعد أسبوع واحد سيعود فى أغلب الظن من قصبته التى ذهب إليها».

إلّا أن قول الخادم هذا لم يبعث فى نفوسنا اليأس كما أننا لم نتفاءل به خيرا فى نفس الوقت. لأن غياب الكليدار عن المدينة يمكن تأويله و تفسيره كل حسب خياله و فكره.

أما القنصل الشيخ فإنه دون أن يغيّر من حاله أخذ يسرد لنا ما يلاقيه من صعوبات و متاعب فى أداء مهمته، و أبدى شكواه من سطوة الموظفين التركى و تجبرهم و عدم استطاعته ليكفى رغباتهم و عجزه عن التدخل فى شؤونهم ..

أخذ يحدثنا بأمثال هذا الحديث لكى يوحى إلينا فى خلاله أنه ليس فى مكنته مساعدتنا كما ليس فى مكنة من سواه ما عدا الموظفين التركى.

و لقد صدق مارسل أقوال القنصل و أخرج من جيبه كتابا من والى بغداد إلى نائب الحكومة فى كربلاء يطلب منه مساعدتنا و تلبية طلباتنا و حاجاتنا و وضعه بين يدى القنصل.

و بعد أن حدج الرجل الشيخ بعينيه فى الكتاب قال: «لا يستطيع أحد أن

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۴۸

يقف فى طريقكم ما دمتم تحملون مثل هذا الكتاب» و هنا صاح بخدمه ليهيئوا له جواده المطهم و يذهب بنفسه إلى الكليدار و عرض القضية عليه، و قال لنا إنه سوف يعود بعد مداولته ليخبرنا بالنتيجة ..

و عند العصر دخل حجرتنا جماعة من القراء و الشيوخ المعممين و أخذ كل منهم فى تقديم التهنئة بوصولنا بالسلامة و قراءة التحية و الترحيب بنا، ثم تركوا الكلام لأحدهم فأخذ يخطب و بعد أن أفاض بمقدمة أدبية طويلة قال إنه من دواعى سرور القنصل أن نحل فى منزله و أن نطلب مساعدته و إنه من دواعى الشرف للكليدار أن يتلقى مثل هذه التوصية من والى بغداد، ثم راح يشرح لنا عظمة و جلالة المرقد المطهر الذى زاره شاه إيران مشيا على قدمه عند ما كان فى هذه المدينة، و بعدها قال إنه ينبغى لنا أن نكون فى غاية الشكر و الاعتراف لأنه لم يسمح قبلا للأجانب بزيارة الضريح الشريف و أن نعد هذه الزيارة فرصة ذهبية قيمة» .. هذه الزيارة التى لا تتم إلّا من سطح إحدى الدور القريبة من المرقد و بعد أن نضع فوق رؤوسنا طرابيش التركى الحمر كيلا نكون موضع ريبة و شك؟!

و بعد أن سكت الخطيب الذلق اللسان تكلّم مارسل فقال: إنه يسره إبداء الشكر الجزيل للعطف الذى قوبل به لزيارة المرقد المطهر من سطح إحدى الدور؟! إلّا أنه يبدى أسفه على أنه لا يستطيع فى حال من الأحوال تبديل ملابسه. و لا سيما تبديلها بملابس تركية و ارتداء شعار التركى الذين لا يكره أحدا بقدر كرهه إياهم».

و على خلاف ما كنت أنتظر، ترك قول مارسل هذا أثرا حسنا فى نفوس القوم لأنه نال به من رجال التركى و حط من أقدارهم .. و

بعد تبادل الابتسام و الهمس بينهم ضربوا لنا موعدا فى الصباح الباكر من اليوم الثانى و ذلك بأن يأتوا فيأخذونا إلى دار قريبة نشاهد من سطحها مرافق و أنحاء المرقد الشريف و ذلك قبل فتح أبوابه و من دون أن نغير ملابسنا و كان ذلك حسب طلبنا.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۴۹

۲۸ ديسمبر ۱۸۸۱:

جلست أنتظر قدوم القوم قبل أن تبزغ الشمس و تمحو أشعتها ظلمة الليل البهيم إلّا أن انتظارى طال و ملأ النور قبة السماء و تلألأت المنائر المذهبة بالضياء و لا أثر لهؤلاء المعممين، أى مضت ساعتان على الموعد المضروب و لم يأتوا ليأخذونا إلى المنزل القريب من المرقد المطهر لزيارته من السطح؟! و عيل صبر مارسيل فأرسل مندوب حكومة بغداد الذى كان يرافقنا إلى دار القنصل الإيرانى ليستوضحه سبب تأخر القوم عن الحضور. ثم خرجنا لنتفرج على مرافق المدينة و مررنا بمقابر وسيعة. و إلى جانب مقابر المتمولين و السراة الواقعة على أطراف الصحن و ضريح الإمام مقابر واسعة خارج المدينة و هى لعامة الناس و الفقراء منهم. و تظلل هذه المقابر أشجار كثيرة و لها منظر جذاب جميل فى هذا المكان الموحش. و أينما سرنا فى هذه المدينة نلتقى برجال دين معممين بعضهم شيوخ لهم وجوه متغضنة معطبة و البعض الآخر فى مقتبل العمر يموج فى وجناتهم ماء الشباب.

تعد هذه المدينة بمثابة جامعة كبيرة يؤمها الطلاب من مختلف أصقاع البلاد الإسلامية لتلقى علوم الدين، و يقضون فيها لهذا الغرض أكثر سنى حياتهم. و يعيش هؤلاء الطلاب جميعا الصغير و الكبير الشاب و الهرم على التبرعات التى يتبرع بها الزوار و وجوه المسلمين الذين يعيشون خارج هذه المدينة. و يقدم الزوار لهذه الغاية أموالا- طائلة عن طيب نفس، و فى بعض الأحيان يتبرعون بأثاث و سجاجيد ثمينة و أوان من الفضة التى يجلبونها معهم و ذلك للحصول على ثواب الآخرة.

و بعد أن رجعنا إلى المنزل كان فى انتظارنا رسول جاء ليبحث معنا مسألة تبديل شعار الرأس عودا على بدء؟!. بيد أن مارسل ضاق ذرعا بهذه السياسة و كان متعبا لهذه المعاملة فلم يصغ إلى حديث الرسول و صاح بالخدم أن يهيئوا الجياد لترك هذه المدينة فى أسرع ما يمكن.

و الخلاصة أننا خرجنا من كربلاء و يممنا وجهنا شطر بغداد ..

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۵۰

منظر لبغداد على ساحل دجلة

۲۹ ديسمبر:

نحن الآن فى بغداد، الشمس على و شك المغيب إلّا أن أشعتها الذهبية ما زالت من خلال السحب المتناثرة تضىء جوانب أفق المدينة و لا سيما أعالى النخل الخضر؟! و لقد تكوّن من ذلك منظر رائع جميل يأخذ بمجامع القلوب.

و أوحى إلىّ هذا المنظر الجذاب هذه الفكرة و هى أن مدينة بابل فى عصرها الذهبى المزدهر عند ما كانت فيها تلك العمارات السامقة و الحدائق المعلقة و القصور العجيبة الغريبة و الأسوار الطويلة المحكمة و الأبواب الضخمة الكبيرة، أقول إن مدينة بابل فى عصرها ذاك، أى جلال كان لها و أية أبهة لها و أى تأثير عميق فى نفس زائرها أول مرة.

و من المؤسف حقّا أن تنقلب عاصمة بختنصر العظيمة إلى كثبان و تلال من التراب .. و لا- أدرى ماذا يكون مصير هذه المدينة (بغداد) عاصمة الخلفاء

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۵۱

المسلمين فى المستقبل؟ هل تمتد إليها أيدى الأقدار كأختها مدينة بابل أم تكون فى نجوة من السوء الذى يحوق بها؟!

هـذه هى عاصـمة أولئـك الخلفـاء العظماء الـذين استطاعوا أن يفتحوا بلـدانا كثيرة و أن يرفعوا علمهم على أعالى مـدن أسـبانيا و أن يخضعوا لحكمهم مدن العالم الكبيرة الأخرى، ترى هل قرب أجلها هى الأخرى و هل تنهدم هذه المدينة عن قريب؟!

إننى لا أريد لها هذا المصير المؤلم أبدا، بل أتمنى على العكس لها كل خير. بيد أن الذى أطلبه إلى اللّه سبحانه و تعالى هو أن يطهّر هـذه المدينـة من أوليـاء أمورها و قضاتها و موظفى كمركها الأتراك الـذين ينخرون جسـمها نخرا و أن يحفظ عليها آثارها التاريخية الثمينة من تطاول أيدى الزمان الذى هو أعدى أعداء العمران ..

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۵۳

السنة الثانية من الرحلة

۱ جنـويه ۱۸۸۲- العمـارة- لاـ أدرى مـاذا أتمنى اليـوم بعـد أن أبت الظروف أن يتحقق أى حلم من أحلامى السابقـة؟ يـا ليتنى كنت أسـتطيع أن ألقى نظرة على وطنى الحبيب فرنسـا. و لكن أين أنا الآن من أرض أجـدادى و ملعب صـبای .. إننى لم أود أن أتابع القيام بهذه الرحلة المتعبة المملة و لكن ماذا بيدى و إننى أحترم رأى مارسل الذى يرى أن نذهب إلى خوزستان.

هكـذا ينبغى لى أن اتجه إلى تلك البلاد و أتحمّل كل ما ينتظرنى من منغصات و متاعب و آلام .. بل من يدرى لعلى أسـعد فيها على خلاف ما أنتظر و على خلاف أيام سفرتى السابقة و لكن لا .. لا .. إن ظواهر الأمور تدل عكس ذلك.

هذه أول سـفرة أقوم بها و أنا راغبة عنها ضجرة يائسة مما أجد فيها من متعة و سلوة. و أقول مرة أخرى ماذا بيدى و مارسل يريد ذلك و ليكن ما يكون ..

و إذ كنـا نريـد أن نقضـى عـدّة أيـام فى طيسـفون فلم نقم بتوديع بلاـد ما بين النهرين الوداع الأخير و لقـد تركنا بغـداد ظهيرة يوم ۳۰ ديسـمبر و كنا و نحن فى طريقنا نرى المزارعين و هم منهمكون فى زراعة أراضـيهم، و بعد مدة قصـيرة رأينا أنفسـنا فجأة فى صـحراء قاحلـة ليس فيها سوى أشواك طويلـة احتمت بظلالها عدّة قطعان من الخراف و كان لرعاتها بخلاف المزارعين الوادعين عيون ضارية وحشية مضطربة. و لم تمض إلّا فترة وجيزة حتى تراءت لنا

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۵۴

خرائب قصر طيسفون التى تشبه شبحا أسود ضخما، و لكن الظلمة ما فتئت أن ملأت المكان و تعالت أصوات الثعالب من بعيد.

و لقـد أمضـينا يومين كاملين فى مشاهـدة خرائب طيسـفون عاصـمة أكاسـرة إيران بتـدقيق و إنعام، كما زرنا مرة أخرى خرائب مـدينة سلوقية التى تنافس طيسـفون، و زرنا مقبرة سلمان باك ثم ركبنا بعدئذ سفينة باسم «الخليفة» و هى من السفن الجيدة لشركة لنج تعمل فى نهر دجلة.

كـانت هـذه السـفينة مكتظـة بـالزوار كسـفينة الموصـل. و بين أثاث هؤلاء الزوار الفقراء رأيت سـجادة ذات لون ثابت جميل و نقوش بديعة. و بعد أن أنهى صاحبها الصلاة سألته عن سعرها فطلب مبلغا كبيرا لبيعها، و الواقع أنه لم يكن يتناسب مع زهده الذى كان يظهر عليه و أطماعه التجارية، لذلك صـرفت النظر عنه وعدت إلى حجرتى. و بمجرد أن دخلتها رأيت من يطرق الباب و لما فتحته وجدت نفسـى أمام زائر آخر يتأبط صـرة كبيرة و قال بتردد و حـذر و هو يلتفت إلى أطرافه: «لقـد جئت إليك بشـىء نفيس» و مد يده إليها و أخرج زوجا من (البوتين) كان لكثرة استعماله قد اهترأ و تمزّق؟!

نظرت إليه بتعجّب و دهش و قلت له باستنكار: أو تريد أن تبيعنى هذا الحذاء؟

أجل .. أما أردت أن تشترى سجادة تقى العتيقة إن هذه الأحذية أعتق و أكثر قدما من تلك السجادة.

لقـد تعجب البائع الأبله السـخيف أنى لم أشتر بضاعته العتيقـة التى لا يشك فيها أحـد؟! و قبل أن يتركنى أخـذ يغلظ الأيمان بأن هـذا الحذاء قديم و عتيق و له فى هذه الحالة أهمية و أى أهمية ..

و فى اليوم الثانى توقفت السفينة فى العمارة و هبطنا نحن منها مع من هبط فيها.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۵۵

تقع هذه المدينة الحديثة البناء على ضفاف النهر و بجانبها سد طبيعى مرتفع يستطيع فيه الملاحون بواسطة قطعة كبيرة من الخشب ربط سفنهم بالساحل. و بمجرد أن يقوم هذا الجسر الصناعى تهجم السفن نحو الساحل.

بقينا نحن فى الصالون بانتظار أن ينزل جميع الركاب لكيلا نلاقى صعوبة فى تركنا السفينة فى هذا الزحام الشديد. و فى هذه الأثناء دخل رجل تركى عليه ملابس نظيفة تدل على كرم محتد و علو مقام، على خلاف الآخرين و يحيط به جماعة من الخدم و الحشم إلى السفينة و انتحى بربانها يتكلّم معه بصورة خافتة ..

لم تكن القضية هنا قضية حذاء عتيق كما مرّ، بل كانت قضية من نوع آخر إن هذا التركى الفظّ طلب من الربان المسكين رطلين من الشراب بإلحاح و إلحاف. فقال له الربان: ألست مسلما متدينا .. ماذا تريد أن تفعل بهما؟

قال: أعلم أن ماء العنب حرام إلّا أن لى فرسا أصيلة مريضة منذ مدة و لأصالتها وجودة جنسها أحبها كثيرا، و لقد أشار أحد السحرة علىّ تدليك بطنها بأحسن خمور أوروبا.

و لما لم يكن على الربان أن يرد مثل هذا الطلب أشار إلى أحد الملاحين بإعطائه قنيتين من الشراب المعتق؟! أخذهما هذا الرجل الوقح و أخفاهما بين منظر نهر دجلة فى العمارة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۵۶

طيات ثيابه دون أن يعطيهما لخدمه لأنه لم يكن ليثق بهم و يأمن جانبهم كما قيل لى دون أن أعلم لماذا؟!

و عندما أراد التركى الانصراف حاول التعبير عن شكره للربان فقال:

«أرجو أن تصبح إنكلترا مثل تركيا دولة كبيرة معظمة». بيد أن هذا التعبير مس شعور الربان و نال من كبريائه الوطنى فقال بانفعال شديد: «لم أسمع ماذا قلت؟ أنت تريد أن تجعل من تركيا فى رتبة الدولة الإنكليزية العظيمة؟

أجاب (الأفندى التركى): لا .. إلّا أننى تمنيت أن يكون لإنكلترا نفس نفوذ وسطوة تركيا ..

و على أى حال .. إننا تركنا الرجلين فى جدالهما و مناقشتهما و هبطنا من السفينة متوجهين إلى المدينة.

و هذه المدينة- التى أسست منذ ثلاثين سنة فى موضع تكثر فيه عواقيل و منعطفات نهر دجلة المتعددة و قرب حدود إيران- ليس فيها وسائل الحياة البتة، و لو لم يعرفنا قنصلنا فى بغداد قبل وصولنا إليها بأحد التجار النصارى لكان من المتعذر علينا أن نمكث فيها و لو لساعات معدودات.

كان مضيفنا يدعى (عيسى) و هو أحد سراة المدينة المعروفين و لقد وضع تحت تصرفنا أحسن حجر منزله إلّا أنه مهما بذل من جهد لكى يهيئ لنا جيادا نمتطيها فى سفرتنا لم يصل إلى نتيجة تذكر قط. إذ لم يكن فى هذه المنطقة ما عدا عند بعض العوائل التى تملك فرسا أصيلة و ذات نسب و حسب حجازى معروف، فليس من المعقول أن يسمح لنا أن نمتطى ظهورها على ما هى من الأصالة و النسب العريق؟! و لا سيما انه من الممكن أن يتعرض لنا فى سفرتنا هذه أفراد من قبيلة بنى لام التى تقطن بين دجلة و مدينة دزفول الإيرانية.

و إن لم تدون على جلود هذه الفرس شجرات نسبها و الجوائز التى أحرزتها فى المسابقة فذلك لا- يفوت الأعراب أبدا، فبمجرد رؤيتهم إياها يذكرون لك كل ذلك كأنهم يحفظونه عن ظهر قلب ..

و لقد ذكر لى أن أحد حكام العمارة كان قد قام بخدمة لشيخ من شيوخ

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۵۷

هذه القبائل الذين يمتلكون مثل هذه الفرس الأصيلة، فطلب الحاكم فى مقابل خدمته الكبيرة تلك أن يهب له إحدى أفراسه التى لم

تكن تعدل فى فكره تلك الخدمة، و كم كان دهشه عظيما عندما قال له شيخ القبيلة: إننى أستطيع أن أمنحك ابنتى مع مائة ألف مجيدية جهازا لها و لا أستطيع أن أهب لك فرسا من أفراسى العزيزة»؟!

و لقد علمت أن شيخ القبيلة العربى إذا ما حدث له و سرقت أمواله و مواشيه فى غارة أو ما شابه و احتاج إلى المال فإنه يبيع كل ما يملك من عقار و أثاث دون أن يفكر فى بيع فرس من أفراسه البتة، و إذا اضطر و هذا فى حالات قليلة جدّا فإنه يبيع ربعها على الأكثر و ذلك بشروط قاسية منها عدم السماح بامتطائها فى سفرات و احتفاظه بحقه فى استرجاع ما باعه منها. و عندما تلد الفرس مهرا فعلى صاحبها الأول أن يتحمل مشاق و متاعب تربيته لمدة سنة كاملة. و بعدئذ يخير الشريك فى اختيار حصته من الفرس أو المهر. هذه الشروط متبعة و معروفة عند جميع شيوخ القبائل العربية و إنهم يحكمون بموجبها فى الحوادث التى تظهر عند إجراء هذه المعاملات عادة. و سكنة الصحارى فى هذه المناطق لا يطلبون فى الأغلب أفراسا تتميز بسرعة الجرى لأن الصحارى التى يعيشون فيها مملوءة بالأحراش و الأشواك أو الأهوار. ففى هذه الحالة يرغبون فى أفراس تتحمل مشاق السير فى تلك الطرق الوعرة و تقاوم صعوبة تلك المظاهر الجغرافية. و توجد أفراس من هذا القبيل تستطيع أن تجرى لمسافات شاسعة و أن تتحمل العطش و الجوع ساعات أو أياما.

و لقد ذكر أحدهم أن بعض هذه الأفراس استطاعت أن تجرى مدة ثلاثة أيام مع لياليها من غير انقطاع و دون أن تقتات شيئا أو تشرب ماء، و العجيب أنه بعد قطع تلك المسافة لم تصب بأذى أو أى مكروه حتى فى قوائمها أو حوافرها.

و الفرس على أى حال ليس باستطاعتها أن تحملنا إلى خوزستان التى نقصد إليها، بل إن الذى يناسب هذا الطريق الوعر هو اليابو أو عدد من البغال التى فى مكنتها أن تتحمل أمثال تلك المتاعب و المشاق.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۵۸

۴ جنويه:

طلب عصر هذا اليوم مضيفنا «عيسى» منا أن نذهب غدا معه إلى الكنيسة للصلاة فيها فقبلنا على الفور القيام بهذه الزيارة. إن مراسيم العبادة تجرى بصورة بسيطة فى هذه الكنيسة التى أنشئت حديثا بمساعدة الطائفة النصرانية فى العمارة و يتعهد أمورها الآن راهب كلدانى واحد.

و عند ما جنحت الشمس للمغيب دخلنا بهوا ضيقا صغيرا لا يتجاوز ارتفاعه أكثر من ثلاثة أمتار و هو مشيد بالطين و الآجر و سطحه مشيد بأعمدة من خشب و لا منفذ له سوى بابه الصغير. و لقد مررت بستين مؤمنا مقدسا قبل أن أصل المحراب الذى كان قد بنى بالطين أيضا.

كان المحراب مغطى بقطعة من قماش مورد (من الچيت) إلّا أنها لم تكن بعرضه و طوله فكانت بعض أقسامه عارية بشكل سمج قبيح. كما أنى رأيت على جانب منه صندوقا من الخشب بمثابة محفظة، و بمجرد دخولنا المحراب رأينا الخدم يشعلون ما يقرب من عشرين شمعة و تنحصر مراسم استقبال و ترحيب النصارى الشرقيين فى المناسبات الدينية بزيادة الإضاءة و إشعال الشموع و المصابيح.

و على أى حال فقد بدأت الصلاة الكلدانية. كان الراهب بعض الأحيان يتلو أدعية بصوته الأجش و أحيانا أخرى يقرأ الأطفال الأناشيد الشجية الأخاذة بأصواتهم الرقيقة. و الواقع أننى لم أحس فى هذه التشريفات أى تعب أو ملل قط لأنها لم تكن طويلة كالتى تحدث عندنا فى أوروبا، حتى خيل إلىّ أننى أرجع القهقرى إلى عدة قرون و أشهد المراسيم الدينية على بساطتها و سذاجتها.

أى أننى تمثلت العصر الذى كان فيها الأباطرة يعذبون النصارى لزجرهم وردعهم عن الديانة الجديدة و المؤمنون الجدد الذين يتخفون بين الجدر الضخمة فى دار مؤمن منهم لأداء شعائرهم المقدسة بصورة سرية أو تحت سقوف الكهوف و الجحور المظلمة. و لقد أوحت مشاهدتى لهذه المناظر البسيطة فكرة أنه قد يكون لهذه الطائفة فى هذه المدينة النائية بعض المشكلات التى لم تستطع أن تذللها و تحلها. و لقد علمت فيما بعد أن هذه الطائفة لم يكن

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۵۹

لها زعيم ديني إلى سنة خلت. فالأطفال يولدون و الموتى يدفنون دون القيام بأى مرسوم من المراسيم الدينية المعتادة قط. اللهم إلّا فى أيام العيد فقد كان يقدم راهب من الموصل أو بغداد و يقيم فى هذه المدينة مدة قصيرة يقوم خلالها ببعض المهام المذهبية و يرسم الخطط العامة للإدارة الدينية ثم يقفل راجعا من حيث أتى. أما الآن فعلى العكس فالموتى قبيل أن يجودوا بأنفاسهم الأخيرة تقع أعينهم على وجه الراهب و يسمعون أدعية العزاء و التسلى، كما يستطيعون أن يعترفوا بخطاياهم و آثامهم. و كذلك المواليد الأحداث يعمّدون على حسب الشعائر الخاصة و الزواجات لا تتم إلّا عن طريق الكنيسة أيضا.

و بعد انتهاء مراسم العبادة هذه دعانا رؤساء الطائفة النصرانية أن نرافقهم إلى دار الراهب. و لبينا هذه الدعوة مسرورين دون أدنى تأخر.

و رأينا منزل الراهب الصغير المتواضع المشيد بالطين و الآجر الذى لا يبعد كثيرا عن الكنيسة. و الواقع أن منزله لم يكن إلّا حجرة واحدة هى محل استقباله لضيوفه و هى محل نومه فى الوقت نفسه و على هذا الأساس لم نطلق عليه اسم منزل إلّا على سبيل المجاز ليس إلّا؟!

و مما لفت نظرنا فى هذا المنزل .. عفوا .. هذه الحجرة صندوق من الخشب اتخذه الأب الجليل كرسيّا له و مخزنا لبعض أثاثه. كما وجدنا على المنضدة بعض كتب الأدعية المقدسة، و لم نر غير هذا من أثاث هذا الراهب المسكين. و الواقع أن كل ما فى هذه الحجرة كان يوحى بالمسكنة و الفقر، بيد أنه بدل ذلك كان الراهب يجد فيها فراغا لا يجده فى مكان آخر يساعده على الانغمار فى أفكاره الروحية العلوية. كما كان يجد هدوءا و سكينة قلما يتاحان له فى غير هذا المكان المتقشف النائى.

۵ جنويه:

إن رب إسحاق و إبراهيم و يعقوب رحيم عظيم. وصلت اليوم إلى هنا قافلة من دزفول كانت تحمل بعض المواد التجارية لبيعها، و لقد أملنا كثيرا أننا نستطيع غدا أن نيمم وجوهنا شطر خوزستان. و بعد بذل جهد جهيد استطعنا أن

نهيئ ستة بغال و «يابو» و نكتريها لأن رئيس القافلة اعتذر من السفر غدا لأن دوابه و بغاله فى حالة تعب شديد و نصب عظيم. فلم نر و الحالة هذه بدّا من تهيئة هذه الدواب الست نحن لنعتاض عن دوابه. و لقد قدم لنا- و الحق يقال القنصل الإيرانى بعض المساعدة فى هذا الشأن. كما أن زوجى قد تعهد بأنه لو أصيبت هذه الدواب الست بأى مكروه فى الطريق فهو المسؤول عن ذلك و يغرم ثمن ما يصيبها.

و بعد الوصول إلى إتمام العقد ذهب زوجى مارسل إلى المتصرف (نائب الحكومة) و طلب منه أن يرسل معنا أربعة من رجال الأمن. بيد أن هذا اعتذر من عدم تلبية طلب زوجى بقوله «إنه لو تعرضتم لأخطار القبائل هذه و أوذيتم فإن رجالى سيصابون بالسوء و المكروه، و سيجعلنى ذلك فى موقف حرج كما سأسأل عن هذه المخالفة و إننى أنصحكم بأن تصرفوا النظر أنتم أيضا عن هذه السفرة الخطرة».

و خلاصة القول أن الموظفين الترك قد أقنطونا من مساعدتهم و رفضوا تقديم أى تسهيل فى رحلتنا هذه.

۷ جنويه:

بدأنا بالحركة فى الظهيرة مؤملين أن نقضى الليلة فى مضارب قبيلة جوئريج عبرت القافلة خلال قناة طويلة زرعت جوانبها بمزروعات نضرة و بعد أربع ساعات وصلنا إلى غابة من النخيل فتوقفنا عندها، و قال لنا حراس القافلة الذين كانوا يرافقوننا «إن الماء من الآن فصاعدا مج مالح فعليكم أن تروّوا حيواناتكم بالماء ريّا جيدا» و هنا تقدموا هم و تعهدوا بالقيام بهذه المهمة فساقوا أمامهم حيواناتنا لإروائها و انشغلنا نحن فى هذه الفترة بتناول طعامنا ريثما يعودون. و لقد رفعت رأسى إلى السماء فى هذه الأثناء فشاهدت سحبا

سودا يتراكم بعضها على بعض فوق رؤوسنا و رأيت عددا من الغربان تنتقل من الجهة اليسرى إلى اليمنى و دون تأخر سقطت عدة قطرات من المطر على الأرض. و رأيتنى أقول لنفسى: الحق إذن مع غالبية الناس الذين يعدون انتقال هذه الطيور ذوات الأجنحة السود شؤما عليهم و لكن كم من الحسن أن تعيرنا أجنحتها هذه لكى نستطيع أن نطير بها و نختفى بين أغصان هذه الأشجار المتكاثفة، و لكن يا للأسف الشديد إن هذه المواضع لم توجد لاختفاء حيوانات مثلنا. و ما إن عادت الحيوانات حتى شرعنا فى الحركة مرة أخرى لكى نصل إلى المضارب فى أسرع وقت ممكن.

و لكن سوء الطالع لحقنا و إذا القافلة تجد نفسها داخل مياه الأهوار و المطر يهطل بغزارة شديدة كأنها السيل الجارف و ظلمة الليل قد ملأت الأفق من كل جانب و بعد دقائق من سيرنا فوق أرض هذه الأهوار المملوءة من القصب و الأعشاب توقفنا و قال لنا مرافقونا: إنهم قد ضلوا الطريق و لما لم ليلة ممطرة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۶۲

يكن فى السماء نجم واحد و كان الظلام يملأ الصحراء فلا يستطيعون و الحالة هذه من متابعة السير و أنه ينبغى لنا أن نتوقف إلى الصباح. و قبل أن ينتظروا سماع رأينا شاهدناهم يذهبون إلى البغال و يرفعون عن ظهورها الأحمال، و ركض زوجى مارسيل إليهم و أخذ يعمل من الصناديق محلّا لنركن إليه، و لقد أمضينا فوق هذه الصناديق ليلتنا تلك بين مياه الأهوار و تحت سيول الأمطار المدرارة حتى بزوغ الشمس. أمضيناها ساكتين دون أن ننبس ببنت شفة أو دون أن نحاول ذلك قط، كما أن مرافقينا فى القافلة قد فضلوا السكوت و التزام جانب الهدوء مخافة أن يحدث لنا و لهم مكروه على أيدى أبناء القبائل الذين هم فى هذه المناطق و لقد سمعناهم يقولون لنا: «إنهم مدينون لهم بمبالغ لم يسددوها و إذا ما علموا بمكانهم الآن فسوف لا- يتأخرون أبدا عن مهاجمتهم و سلب ما يحملون لأنهم يعدون ذلك من حقهم».

و الواقع أنه لا يحكم هذا شيء غير القوة فالقوى هو صاحب الحق و كل من كان أقوى فهو الأغلب على من سواه. و لشدة تعب هؤلاء الحراس المرافقين فقد ناموا فى مياه المستنقعات و لكن نومهم كان متقطعا و عيونهم لا تحيد عن بغالهم خشية أن تسرق. أما نحن فظللنا فوق الصناديق قابعين و بالقرب منا جلست طباختنا الجديدة كالقرد بين القرود، و المطر ما زال هاطلا بغزارة شديدة. و فى الساعة الحادية عشرة اشتدّ المطر أكثر من قبل وهبّت ريح صرصر مخيفة. ترى ما أجمل الليل و أسره للذين يركنون إلى منازلهم و هم مشغولون بمعاقرة بنت الدنان و مجاذبة أطراف الحديث مع أهليهم و المقربين إليهم، و ما أصعب و أشق الليل على الذين ضلوا الطريق و اضطروا أن يقضوا ليلتهم فى مياه الأهوار و تحت هطول المطر الذى لا ينجيهم منه إلّا قبعاتهم المهترية. و أخيرا غلب التعب المظاهر الطبيعية القاسية و ذهبت فى سنة من النوم العميق دون أن أشعر بشيء حولى.

و ما إن امتد أول أشعة الشمس إلى الأفق حتى أفقت من نومى و وجدت زوجى كان قد وضع جميع الألحفة علىّ و قمت من فراشى دون أن أحس بأذى أو ألم فى جسمى سوى رجلى اللتين كانتا قد تعرضتا للرطوبة كثيرا البارحة،

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۶۳

و عند ما بدأنا بالحركة أحسست بأنهما انقلبتا إلى خشبة يابسة حتى أننى لم أستطع أن أحركهما قط و هزتنى قشعريرة شديدة بحيث حالت دون أن أستطيع الامتطاء. و لكنه لم يكن بد من الركوب على أى حال و الإسراع فى السير كيما نصل إلى مكان نتقى به من هذه العوارض و نحفظ أنفسنا مما قد ينتظرنا من أحداث.

بلغت الساعة الثامنة و لم يبد للشمس أثر، و عاد المطر يهطل مرة أخرى و مرافقونا يذهبون يمنة و يسرة كالمجانين بين القصب و أحراج المستنقع و بعد لأى اهتدوا إلى الطريق السوى و علموا بأنهم بدل أن يذهبوا نحو المشرق كانوا قد ذهبوا نحو الجهة الأخرى خطأ.

لقد لقيت الأمرين فى هذا المكان الذى نزلنا فيه. و بعد تلك القشعريرة التى تعرضت لها أصبت بحمى شديدة و تسارع نبضى و

أخذت أتألم فى جميع عظام جسمى. و أخيرا و بعد إحدى و ثلاثين ساعة من التوقف و الحركة بلغنا مضارب قبيلة جوئريج. و لو لم يمسكنى زوجى و المرافقون عند هبوطى من على ظهر جوادى لكنت أقع على الأرض و يدق عنقى. و لقد حملونى بعدئذ على أيديهم إلى خيمة وسيعة و وضعونى على الأرض بجانب بعض الخراف و النعاج الصغيرة. و تلفت حولى فلم أجد لحافا أو بطانية أستطيع أن أتدثر بها إذ كانت جميعها مبللة بماء المطر إلّا أنه من حسن الحظ أن تلك الحيوانات القريبة منى قد عملت على تدفئة المكان و شعرت ببعض الراحة و الاطمئنان.

و نقلت بصرى فإذا أنا بطباختنا و هى مطروحة على جانب من جوانب الخيمة تسعل سعالا شديدا و لا يغطيها شىء سوى قطعة من قماش ربطت بها رأسها فقط، و طباختنا هذه كانت الثامنة عشرة من عدد اللواتى عملن فى خدمتنا.

و لقد آلمنى كثيرا منظرها المحزن حتى أننى نسيت ما كنت فيه من ألم و عذاب و رأيتنى أقول لها: «سروپا- و كان هذا اسمها- أتشكين ألما أنت الأخرى؟ أمريضة؟»

مريضة .. لا لا .. و لكننى على شفا هاوية الموت. إننى أشكو حمى شديدة و يخيّل إلىّ أننى أصبت بذات الجنب و بالروماتيزم .. أولم ترينى أنى

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۶۴

أكاد أكون عارية و لم يغطنى شىء؟

ماذا صنعت بعباءتك و قبعتك إن حقيبتك كانت مملوءة بالملابس فأين هى الآن أفقدتها فى الصحراء؟

أسفا أسفا .. إننى لا أريد أن أراها مرة أخرى فكروا فى تهيئة قبر تدفنونى فيه.

من الطبيعى أننا نهيئ لك قبرا مناسبا لا تشكى فى هذا أبدا و لكن الآن أجيبينى عن الأسئلة التى أطرحها عليك. ماذا عملت بحقيبتك .. أين هى الآن؟

بقيت فى دار صديقكم عيسى فى العمارة.

لماذا لم تجلبيها معك؟

ذلك لأنه فى الليلة السابقة لحركتنا أرسل المتصرف- نائب الحكومة فى العمارة- إلىّ شخصا يسر بأذنى طلبه لمقابلتى. و عند مقابلتى لهذا الرجل الذى أدعو اللّه بأن يجعل نساءه عقيمات إلى الأخير قال لى: «سمعت بأنك تقدمين على خدمة هؤلاء الأوروبيين و تريدين أن تصحبيهم إلى «خوزستان» قلت له: «أجل يا حضرة سيدى المتصرف و أى سوء فى هذا» قال: «إننى لوحت إلى سيديك بالمخاطر الكامنة فى هذه السفرة و لقد أديت ما كان مطلوبا منى فى هذا الشأن لأمنعهم من القيام بهذه الرحلة، و لكنه بالرغم من ذلك لم يجد معهم ذلك شيئا. و هذا بالطبع لا يعنينى كثيرا و لا يخص مسؤوليتى البتة، و لكنك أنت لما كنت من تبعة تركيا فلا أريد أن تهلكى فى هذا الطريق غير المأمون لذلك أنصحك بأن تتركى هؤلاء المجانين و تعودى إلى بغداد». و لقد شكرت للمتصرف عواطفه الجياشة تلك و وعدته بأننى سأقفل راجعة إلى بغداد و أترك خدمتكم، و لكننى فى الواقع كنت أخدعه لأنى لم أستطع أن أتخلى عنكم بعد أن طعمت من خبزكم و دنت بفضلكم العميم و إننى أحفظ حرمة العهد و أحترم «الملح و الخبز». و لست على أى حال بالجاحدة أو الكافرة بالنعم .. لذلك جعلت حقيبتى عند مضيفنا عيسى و ارتديت أقدم ملابسى وكيلا أخجل منكم كنت أسير دوما فى مؤخرة القافلة .. لهذا السبب أصبت بالحمى و بالسعال و كم أتأسف الآن على أننى أصغيت لكلام المتصرف و صدقته و لم

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۶۵

أرتد ملابس كثيرة و أنى لم أجلب معى حقيبتى ..

على أى حال لا يجديك الندم شيئا الآن. انهضى و خذى هذه الفلوس و اشترى بها خروفا و اذبحيه و تدثرى بجلده الذى فيه الصوف،

و بذلك تستطيعين اتقاء نفسك من لسعة الجو و برودته .. و بالمناسبة قولى لى ما ذا قدمت لمارسل من غذاء؟

لم أقدم إليه أى شيء. الطعام موجود بأجمعه دون أن يمسه أحد قط.

يخيّل إلى أن الأعراب قدموا إليه رزا مع لبن حامض ..

و هنا رأيتنى أتألم لشيء جديد لم أكن أنتبه إليه من قبل و هو أننى لم استطع القيام من فراشى لتهيئة الطعام لزوجى و لاح أمامى المصاعب و المشاق الكثيرة التى سيلاقيها زوجى فى تناول طعامه ما دمنا نحن الاثنتان طريحتى الفراش؟!

۱۰ جنويه:

لا أمل فى الراحة أبدا إذ ما زالت أمامنا مسافة طويلة. و ما كادت الشمس تبزغ حتى علت أصوات المرافقين لنا و قالوا إنه ينبغى لنا اغتنام هذه الفرصة و المبادرة إلى الحركة سريعا، لأن هذا الفصل سريع التقلب و ليس من الممكن الانتظار فيه لطقس جيد مشمس.

مع أنى قضيت الليلة السابقة فى أتون الحمى الملتهب و أصبحت تعبة مرهقة الأعصاب أقول على رغم ذلك فما كادت تبدو بشائر الصباح و تشرق الشمس من البرج الشرقى و تبدو الصحارى أمامى مزدهرة جميلة حتى سرى النشاط فى عروقى و تململت فى مكانى و امتطيت صهوة جوادى بعد بذل قسط من الجهد الجهيد.

و فى البدء عبرنا خلال مياه آسنة كانت قد تجمعت بسبب الأمطار الغزيرة الهاطلة ثم أخذنا نسير فى طريق تقع على امتداده سلسلة من التلال الكبيرة.

على الجانب الأيمن و الأيسر منا تبدو قطعان من الجمال و هى ترعى الكلأ، كما أنه يبدو من البعيد بعض الجبال المرتفعة التى تلألأ قممها المزدانة

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۶۶

بالثلوج تحت أشعة الشمس الوهاجة. و قيل لنا إن مدينة شوش تقع تحت سفوح هذه الجبال و إن مدينة دزفول الجديدة قد بنيت بالقرب منها فيما بعد.

ترى هل أستطيع أن أبلغ هدفى؟ إنه لم يمض إلا بعض ساعة و عاودتنى القشعريرة مرة أخرى و أصابتنى التشنجات .. و لما كنت غير مستطيعة على أن أجلس على الأرض تمددت فوق التراب الرطب. و لقد ذهبت ترغيبات و نصائح و توسل زوجى لى أدراج الرياح، بل لو كنت أقتل لم أستطع أن أؤخر أو أقدم رجلا من رجلى. كنت فى حالة يرثى لها و أملى فى الحياة يقل يوما بعد يوم، و لقد كان من الصعوبة بمكان أن نمكث فى هذا الموضع النائى المقفر الذى ليس فيه ماء أو طعام، كما لا نملك نحن وسائل الدفاع عن أنفسنا إذا ما هاجمنا أعراب القبائل فى هذه المناطق، و هذا أمر منتظر و قريب. لذلك رأينا أنفسنا مضطرين إلى الحركة لنوصل أنفسنا إلى مضارب بعض الأعراب القريبة أو على الأقل ننتقل من هذه المنطقة الضيقة إلى أراض وسيعة مأهولة، و لكن كيف ذلك و الحالة هذه أخذ زوجى مارسل يفكر فى طريقة لننجو بها مما نحن فيه من مأزق حرج. و فجأة سمعته يطلب من المرافقين أن يضعوا جميع الألحفة على أحمال البغال و يصنعوا من ذلك محلا لأرقد عليه و أن يشدونى إليه بحبال كيلا أسقط.

و بدأت القافلة بالسير على هذا الشكل، يقف على الجهة اليمنى أحد المرافقين و بيده زمام الجواد الذى أمتطى صهوته، و على الطرف الآخر زوجى و هو يمتطى جواده و ينظر بحذر و اهتمام تارة إلىّ و أنا فى سريرى الغريب هذا و تارة إلى المرافقين المساكين الذين قاسمونا هذه المصائب و المشاق كيلا يضلوا الطريق ثانية. و لقد استطعت و أنا ممددة على هذا السرير العجيب أن أتحمل متاعب ثمانى ساعات من السير المرهق. و قريب العصر بلغنا مضارب إحدى القبائل التى تقطن على سفح تل مرتفع.

و بالرغم من التعب الشديد الذى كنت أحسه و آلام الحمى الملتهبة لم أستطع أن أصرف النظر عن مطالعة أوضاع هذه القبائل التى تمثل العهد القديم البدائى فى نمط حياتها.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۶۷

عندما حل الغروب راحت قطعان الماشية إلى الزرائب و الحظائر من المراعى التى أخذت إليها فى الصباح. و كان منظر الخراف و النعاج و هى تتراكض بعضها فى أثر بعض و الجمال و البقر و هى تسير فى تثاقل و تأن جميلا يبعث على النشاط و الحيوية.

و بمجرّد أن دخلت تلك الماشية إلى المحال المخصصة لها و اطمأنت إليها هجم الرعاة من النساء و الرجال على خيمتنا للتفرج علينا، و كان عدد هؤلاء كبيرا بحيث لو أن رئيسهم لم يردهم إلى خيمتهم لكانوا قد خنقونا على وجه التأكيد.

كانت نساؤهم جميلات الملامح يرتدين ملابس طويلة تدل على العفة و النجابة. و لها طيات من الأمام و الخلف و كانت على رؤوسهن عمات طويلة من أقمشة شتى. أما زينتهن فكانت مقصورة على بعض الأساور من الفضة و الزجاج و الخواتم الرخيصة الأخرى.

و الخلاصة أن جميع النساء و الرجال أحاطوا بالنار التى أشعلوها لتدفئتنا و أننى استطعت فى ضوء الموقد الخافت أن أتطلع إلى المنظر الجميل الذى كان مرتسما أمامى. و الواقع أن هاته النسوة البدويات بقاماتهن الفارعة و سماتهن الجذابة و شعورهن المضفورة و المتدلية إلى ما يقرب النحور يستحقن كل تمجيد و تحسين. و إننى سررت كثيرا بمشاهدتهن لدرجة أن نسيت مرضى تماما.

امرأة من عرب قبيلة بنى لام

إن سكنة هذه المناطق البدوية لم يعرفوا شيئا من حضارة المدن قط و إنهم يعيشون بخصائصهم الذاتية فى هذه المحلات النائية و يديرون أسباب

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۶۸

حياتهم بحسب القوانين الطبيعية، كما أن لهم رئيسا دينيّا يؤدى حاجاتهم الدينية و المذهبية و على هذا النمط الساذج البسيط يحيون حياتهم و يحافظون على بقايا نسلهم.

و عند ما تندلع نار الحروب بين شيخين من شيوخ هذه القبائل فأول من يحرض الرجال و يشجعهم على القتال هن هاته النسوة اللاتى يتحركن فى أعقاب أزواجهن و يحمسنهم بالصياح و الصراخ على متابعة الحرب، كما يقع على عاتقهن حراسة الأسرى و المغلوبين و تعذيبهم، و لهن فى ذلك وسائل مبتكرة طالما يفتخرون بها و هن على الدوام يفكرن فى طرق جديدة أخرى للقضاء على الأعداء بحيث لا يبقون مدة طويلة فى الأسر. ففى بعض الأحيان يحرقنهم على النار بالتدريج و فى أحيان أخرى يقطعنهم إربا إربا بالسكين و عندما يقدمن على مثل هذه الأعمال فإنهن يصبن بحالة انفعال و تأثر شديد تقرب من الجنون. و إذا ما قتل أزواجهن فى مثل تلك الوقائع فإنهن يفتخرن، و لكن عندما يتقدم منهن من يطلب يدهنّ للزواج فإنهن يحبذن على الفور و يقبلن الزواج منه و من الممكن أن تتزوج الأرملة منهن ثانية بعد يوم أو يومين من قتل زوجها الأول.

و عندما تقع حوادث السرقة أو اختطاف الفتيات بين أبناء هذه القبائل فيفضون نزاعهم حول ذلك بحسب قوانين أجدادهم القديمة. و فى الحالة الثانية- اختطاف الفتيات- يلبس أقارب الفتاة و لا سيما أفراد قبيلة بنى لام التى نحن فى ضيافتها الآن السواد دليلا على حزنهم و أساهم و يتسلحون و يدخلون مجلس الشيخ للمحاكمة بمنتهى الغضب و التأثر، و يفضلون السكوت بيد أن أقارب الخاطف لا يظهر عليهم التأثر و الحزن كثيرا. و عندما تفتح جلسة المحاكمة يسأل الشيخ الذى يترأسها عادة من الحضور عدّة أسئلة ثم يأخذ بإسداء النصائح و الإرشادات للطرفين لإصلاح ما فسد، و يأمر أخيرا أن تعطى عائلة المذنب إزاء تقصيرها ذلك للعائلة الأخرى ثلاثين جملا أو ما يقارب ذلك. و بعد صدور مثل هذا الحكم يرتفع الضجيج بين الطرفين و ينتهى ذلك إلى النزاع. و فى النهاية و بعد عدة ساعات من الأخذ و الرد يقبل الطرفان

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۶۹

الحكم الذى سبق أن أصدره الشيخ أو تخفيفه بعض الشيء. و عندما تنتهى المحاكمة يأخذ مندوبو الطرفين بالاعتذار كل إلى الآخر و بعد إقامة وليمة غنية بكل ما لذ و طاب من الرز و لحم الخراف و اللبن الحامض المذاب بالماء يعود هؤلاء المندوبون إلى مضاربهم

كأن لم يكن بينهم شيء مذكور؟!

و لعل من الطريف أن أذكر أن تلك المقادير الكثيرة التي يلتهمونها من الغذاء تجعلهم كالسكارى يترنمون، إلّا أن تناولهم كميات كثيرة من اللبن يعمل على إظهارهم بمظهر الضعف و الخور و يبعث في نفوسهم الكسل و يفقدهم النشاط! كما أن تناول العنب و التمر بكميات كبيرة يجعلهم في مثل هذه الحالة أيضا. و هنا تظهر لنا الحكمة البالغة في نهي نبي الإسلام لأتباعه عن تناول المشروبات الروحية، و لا ريب أن الكمية القليلة منها تفيد الإنسان و لكن الفائدة هذه تنعدم عندما يتناولها أفراد القبائل الذين يقطنون البرارى إذ تولد في رؤوسهم هيجانا شديدا و تعمل على انفعالهم و خروجهم عن طورهم بسرعة.

مضارب قبيلة بني لام

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب علي بصري، ص: ۱۷۰

مزار الإمام نوئيل- في العمارة

و ليس من المستغرب أن يقوموا بأعمال وحشية و جرائم فظيعة عندما يكونون في مثل تلك الأحوال. هذا إذا كانت الكمية قليلة فكيف بنا و إذا زادت الكمية عن المقدار الطبيعي؟!

و مجمل القول أن مثل هذه الأحكام التي يصدرها الشيخ ليس لها استئناف في مضارب قبيلة بني لام. بيد أنه في القبائل الأخرى يختلف الأمر عن ذلك، فمثلا في قبائل عنزة و شمر التي من القبائل الشريفة لا تنتهي المحاكمة بهذه السرعة و السهولة، و في أغلب الأحيان لا تنتهي إلّا بعد مقتل أحد أقارب الخاطف أو اغتياله هو نفسه و إلّا فاللطخة السوداء ستبقى عالقة في صفحة شرفهم و أنهم يبقون متوارين عن الأنظار؟!

لم تستطع الدولة التركية من إخضاع هذه القبائل لإرادتها و كم تكون سعيدة بأنها لو استطاعت أن تجبي منها بعض الضرائب دون اندلاع نار الحرب و دون إراقة الدماء، إذ كثيرا ما تمتنع عن دفع الضرائب و تضطر الحكومة التركية من تسيير جيش إليها لقبض تلك الضرائب فقط، و حتى بهذه الواسطة لا تستطيع من تسلم أي مبلغ في أغلب الأحيان، إذ تطلع هذه القبائل على حركة الجيش الشاخص إليها سلفا و يختفون في الأهوار التي لا يعرفها أحد سواهم، و حتى لو عرف قائد الجيش بمحل اختفائهم فإنه يخشى وروده لما في ذلك من مخاطر و مهالك قد تودي بجيشه كله. و كثيرا ما يحدث أن يعود الجيش إلى بغداد مرة أخرى دون أن يقبض دانقا واحدا.

و في الأحوال التي تؤخذ القبيلة على حين غرة تبادر إلى طي مضاربها

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب علي بصري، ص: ۱۷۱

خرائب طاق بستان

سريعا أو تركها في بعض الأحيان و الفرار إلى المناطق الجبلية للاختفاء فيها بعد أن يخفوا في الأهوار ذخائرهم و ذهبهم و فضتهم. و بعد ذهاب الجيش و جلائه عن مناطقهم يعودون إلى تلك المستنقعات و يخرجون منها صناديقهم التي أخفوا فيها ذهبهم و أموالهم و هي موحلة مبللة.

و القبائل الموسرة التي تحوي عوائل متعددة كبيرة لا تستطيع أن تهرب بسرعة في مثل هذه الأحوال لذلك تضطر إلى اتباع طرق حربية أخرى. إذ ثمة رجالات يأخذون مبالغ سنوية من هذه القبائل بصورة مستمرة مقابل إخفاء ذخائرهم و نقودهم في مثل هذه الأحداث و محاولتهم إرشاء الوالي أو المتصرف للإصلاح بينهما و ما لهؤلاء من نفوذ و جاه و سطوة فكثيرا ما يتوفقون في مسعاهم.

و القبيلة التي نحن اليوم في ضيافتها، و كذلك قبيلة جوئريج لم تدفعا الضرائب قط لأنهم مستعدون دائما للفرار، و هؤلاء يقطنون على حدود إيران

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب علي بصري، ص: ۱۷۲

و تركيا و إذا ما تعرضوا في إحدى هاتين الدولتين لتعقيب أو جزاء فإنهم يلوذون بالدولة الأخرى كذلك الحال عند مطالبتهم

بالضرائب.

و ما أسعد تلك القبيلة التى تستطيع بحرية و استقلال أن تعيش و ما أشد مسكنة المسافر الذى تضطره الظروف إلى أن يلتقى بأفرادها؟!

مضيفونا لصوص و سراق معروفون فى هذه المناطق كلها بحيث يخافهم الجميع و إنهم فى أغلب الأحيان يعيشون على جهود نسائهم، و الأتراك يخشونهم أكثر من الإيرانيين. و القوافل التى تمر من هنا تدفع لشيخهم مبلغا من المال كيلا تتعرض لمكروه أو سوء. و يتعيّن هذا المبلغ فى أكثر الاحيان بعشر فرنكات عن كل حيوان، و إذا دفعت القوافل هذه المبالغ فإنها تستطيع أن تمرح و تسرح بين العمارة و دزفول، أما خلاف ذلك فإنها تتعرض للغارة أو السلب أو القتل.

رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة و بغداد/ تعريب على بصرى، ص: ۱۷۳

فهرس المحتويات

تقديم ۷

رحلة مدام ديولافوا ۹

فى شط كارون ۱۱

البصرة بندقية الشرق ۱۷

الصابئة، الذين يقبرون الأحياء!! ۲۷

بغداد أجمل من اسلامبول و دجلة أروع من البسفور ۵۳

حريق بغداد سنة ۱۸۸۱ ۱۰۹

السنة الثانية من الرحلة ۱۵۳

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل

(=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم

- فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللّه تعالی؛ و اللّه ولیّ التوفیق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹